الباب التاسع

فى ذكر ملك الطير العقاب

والحجلتين الناجيتين من العقاب

قال الشيخ أبو المحاسن ؛ من هو لثوب الفضل كاس ، ولكاس الظرف حاس ، وفى حدائق الأدب آس[١] ، ولأحداق الأدباء أذكى آس[٢] وفى عيون الأعداء أنكى آس[٣] : فلما أنهى الحكيم حسيب كلامه الذى استعبد در النسيب، وذكر من النصائح والحكم عن ملوك العرب والترك والعجم ، ومن مباحث الجن والإنس ما حصل للسامعين به النشاط والأنس، ثم استطرد إلى فوائد البهائم والوحوش ، ورقّم فى دار ضرب البلاغة من حسن الصياغة والرقوش ، ما قعد له من زواهر كلامه على سكة دينار الفصاحة أحسن النقوش ، وعقد بجواهر نظامه لِمقرَق العدل فى دار الملك إكليل العروش ، افتخر أخوه القيل بوجوده وقدَّمه على جميع خواصه وجنوده ، وأفاض على حدائق آماله زلال إحسانه وجوده .

وقال له : يا نديم الدير ، وعديم الضير ، وقديم المير ، ومديم الخير ، قد أفدت حكم سائر الحيوان فكرر علينا من حكم منطق الطير ، فابتهج الحكيم فى الساعة ، وانتهض ملبيا بالسمع والطاعة .

[٧٥] **ثم أنه قال** : أدام **الله** ذو الجلال أيام مولانا الإمام وشمل بذيل رأفته الخاص والعام ، بلغنى أنه كان فى ممالك أذربيجان[٤] جبل يسامى السِّماك فى السمو ، ويعانى الأفلاك فى العلو غزير المياه والأشجار ، كثير النبات والثمار ، وفى ذيله شجرة قديمة ، منابتها كريمة ، أغصانها مهدلة ، وثمارها مسبلة ، كما قيل :

وفى أصلِها وكرٌ لزوج من الحَجَل كأنّ رُبا رضوان أَلْبَسَهَا الحُلَلْ

---

(١) أحد الزهور البيضاء الجميلة .
(٢) أسوة وقدوة .
(٣) الشديد .
(٤) أذربيجان : هو أقليم واسع مشتمل على مدن وقلاع وخيرات بنواحى جبال العراق غربى أرمينية . معجم البلدان (٣٧٠) .

هو وطنهما المألوف ومقرهما المعروف ، ورثاه من أسلافهما ، وهو فى الشتاء والصيف مرجع إيلافهما ، يدعى الذكر منها النجدى ، والأنثى غرغرة بنت السعدى ، ولذلك الجبل جبل مقارن من جهة الشرق يسمى القارِن ، لو قصد البدر دوره أو رفع رأسه لينظر سوره ، أو يحل فيه شعاعه ونوره ، لوقع عن قمة رأسه طرطوره ، فى قُلَّتِهِ[1] سرير عقاب منيع الجناب، هو ملك الطيور والجوارح ، وسلطان السوانح والبوارح ، وصافات تلك القِلال وكواسر هاتيك الجبال ، كلها تحت أمره العادل العال ، متوج فوق رأسه بإكليل ، ما يبرزه من مثال .

فكانت الحجلتان كلما فرختا وقاربت أفراخها الطيران ، عزم أبو الهيثم الكاسر ، بما معه من عقابين كواسر ، وجوارح الطيور ومن تحت أمره من الجمهور ، على التنزه والاصطياد ، فتحيط عساكره بتلك النواحى والبلاد ، فكانوا كلما وطئوا ربوة مهودها وسلكوا ما بين أكنافها وبطونها ونهودها ، تصل طراشة العساكر إلى الجبل الذى فيه وكر الحجل ، فتذهب أفراخها تحت السنابك ، وتضمحل تحت أقدام أولئك ، فتقع الحجلتان فى النكد والأحزان وبالجهد والمشقة البالغة ، يخلصان هما من تلك الداهية الثالغة[2] ، والنائبة الدامغة ، فلم يزالا فى نكد على فقد الولد .

فافتكرتا فى بعض الأيام ، وقد أثر فيهما هذا الإيلام فيما هم فيه من النكد لفقد الولد المتجدد على طول الأمد ، فقال النجدى لبنت السعدى : قد كبرنا وضاع العمر وحرنا ، وقاربت شمس عمرنا للأفول ، وأقدام بقائنا أن تزل وتزول :

وليس لنا مَنْ يَذْكُرُ اللَّه بَعْدَنا إذَا ما انْتُشِينَا فى مخاليب فَقْدِنا

---

(١) قلته : الخشب المنصوبة للتعريش .

(٢) الثالغة : المهلكة .

ولا من يُحيِ نشر آثارنا إذا طوى الموت بساط أعمارنا ، وقد قضينا العمر فى الإنكاد بفراق الأولاد ، ثم بعد الحياة ينمحى اسمنا ، ويندرس بالكلية رسمنا ، فلا حياة هنية ولا أخرى رضية ، وأى هناء مع فراق قرة العين ، خصوصا على وجه المذلة والشين ، وما لنا نظير فى هذا الدهر المبير ، إلا من جمع المال من حِلِّه وغير حِلِّه وتركه بعد الكد البليغ ، والحرص إلى غير أهله فيصير كما قيل :

تؤدِّيه مذمومًا إلى غير حَامِدٍ فيأكُلُه عَفْوًا وأنت دَفِينُ

ولا طاقة لنا فى دفع جيش العقاب ، ولا حيلة إلى الخلاص من عقاب هذا العقاب ، فذهب أكثر العمر فى هذا الويل ، وأشبهنا النائم على طريق السيل ، وإن غفلنا عن أنفسنا ربما اجتاحونا ، وطرحونا إلى مهلكة تدير علينا من العدم طاحونا ، فالرأى عندى أن نترك هذا الوطن ونرحل إلى مكان لا نرى فيه هذه المحن فإنه لم يبق لنا طاقة على فراق الولد ، ولا قلب يحتمل هذا الحزن والنكد :

ذابَ قلبى بين دمع وضرم فارحمونى أنا مِنْ لَحْم ودَم

وذاك لأن المرء يحيا بلا رجل ويد ، ولا تلقاه يحيا بلا كبد . قالت: لقد أعربت عما فى فكرى ، وشرحت ما كان يجول فى صدرى ، وهذه محنة قد أعيانى فى دائها الدواء ، وبلاء عمنا ، فكلنا فيه سواء :

المرءُ يحيا بلا ساقٍ ولا عَضُدٍ ولا يعيشُ بلا قلبٍ ولا كَبِدِ
بى مثل ما بك يا حَمَامة فاندبى ولم يَعْرِفْ حرارة ما أعانى
سوى قلبُ كَوَاه ما كَوَانى

وأنا لم أخل قط فى وقت ، من هذا الفكر الذى أوجبه الهم والمقت ، واعلم أن سهام آراء العقلاء ونبال أفكار ذوى النظر من الحكماء ، إنما تصدر من قوس واحدة ، وتتوجه إلى غرض طريقته غير متعددة ، وقال العقلاء ،

وأولو التجارب من الحكماء ، بل أطبق أرباب العقول ، وأئمة الدين وأصحاب الأصول : أن قضايا العقل كلها صادقة ، وألسنتها فيما تحكمه بالصواب والأصالة ناطقة ، غير أن كثيرا ما تشتبه القضايا العقلية لسوء التصور بالقضايا الوهمية ، فيقع الخطأ بواسطة الوهم فى الفهم : وينسب إلى العقل ذلك السهم ، وإلا فاتفق العقلاء جمعا أن القضايا العقلية لا يقع فيها الخطأ قطعا ، وأن قضايا الحس لوقوع الاشتباه واللبس يتصور أنها حق ، ويقضى لها وعليها بالصدق ، وإذا وقع الخطأ لحصول الاشتباه وعدم التأمل والانتباه فى القضايا الحسية ، والقضايا التى هى بحاسة البصر مرئية ، كما وقع ذلك فى حادثة الطريقة البغدادية ، فوقوع الخطأ بالوهم أولى فى القضايا العقلية ؛ لأن طرقها أخفى وأحكامها معنوية ، فسأل الذكر عن تلك البغدادية ، وما هذا الخبر .

[٧٦] **قالت** : كان فى مدينة السلام بغدان[١] امرأة من المتخذات أخدان[٢] ، اسم زوجها زيد وهى أم عمرو وذات كيد ، لها عدة أخدان تدعو لكل بالإخوان ، وكل ينشد فى السر والإعلان قوله:

دعتنى أخَاها أمَّ عمرو ولم أكن أخَاها ولم أرْضَعْ لها بلَبَان

فاتفق أن زوجها زيد دعاه أمير البلد إلى الصيد ، فركب معه وسار وخلت منه الديار ، فتسامع بذلك بعض أخدانها ، فتوجه منهم طائفة إلى مكانها ، فأول من سبق تاجر ذو شبق[٣] ، فدخل بثياب بيض وشاش رحيض[٤] ، وهيئة نظيفة وصورة ظريفة ، فأسرع فى الدخول ومعه ما يليق

---

(١) بغدان : أحد اللغات فى اسم المدينة بغداد . معجم البلدان (٢٠٢٠) .

(٢) أخدان : عشاق وأخلاء .

(٣) صاحب الشهوة .

(٤) مغسول نظيف .

من المأكول ، فتلقته بالترحاب ، وأخذا فى لذيذ الخطاب ، فما استقر به القر ر حتى قرع قارع باب الدار ، فظنته زوجها وحقته بوجهها ، فنهض خائفا وتحير راجفا ، وطلب مكانا يخفيه وكِنًا يأويه ، فلم يكن فى دارها مخبأة زوارها سوى طقيسى لطيفة يصعد إليها من سقيفة ، فأرشدته إليها فرقى عليها ، وبادرت إلى الإتحاف ، فإذا هو حريف صراف ، ففتحت الأغلاق وتعانقا تعانق المشتاق ، فدخل بهيئة زهراء بلباس أخضر وعمامة خضراء ، ومعه من الحلوى مجمع ومن الزجاج[1] أربع ، فجلسا يتذاكران الحوادث ، إذ طرق الباب ثالث .

فقالت : هبط أوجى[2] وجاء زوجى ، فوثب فى رجفة كأنه ورقة سعفة، فسأل عن مخباه وستر يغشاه ، فأرشدته ربة الكريسى[3] إلى طريق الطقيسى، فصعد اللاحق ولحق السابق ، وبادرت الرتاج ربة التاج ، وأم الأزواج ، فإذا هو أحد الظرفاء وثالث الحرفاء ، رجل زيات ، ومعه مجمع سكر نبات ، فتلقته بالتكريم وأجابته بالتسليم ، فدخل بثوب أصفر وشاش معصفر ، فشرعا فى الملاعبة والملاطفة والمداعبة ، فدق الباب رابع الأصحاب ، فبادر الزيات الفرار وطلب مختفى للقرار ، فدلته فى المفر إلى المعهود المقر ، فصعد إليه ولحق بصاحبيه .

وتوجهت إلى الباب فإذا هو أحد الأحباب وهو رجل قصّاب[4] ، وعليه ثياب سود وخفه المعهود ، وعلى رأسه مئزر ثمين[5] وبيده خروف سمين ، فقالت : أهلا وسهلا ، وأرفع محلا بالحبيب النجيب ، والبعيد القريب ، فدخلا واشتغلا بالخطاب والتهيا عن رتاج الباب .

---

(١) الزجاج : أى زجاجات الخمر .
(٢) أوجى : شرفى ، والمعنى : أننى سوف أفضح .
(٣) صاحبة البيت .
(٤) القصاب : الجزار .
(٥) عمامة قيمة .

وكان فى تلك المَحِلَّة شخص أحدب أبله ، يدخل البيوت ويتمسخر فلا يمنع من ذلك ولا يزجر ، ويلاطفه الأكابر والأعيان ولا يحتجب منه النسوان، فمر على باب زيد فرآه لا إغلاق ولا قيد ، فدخل على غفلة ، ولم يستأذن أهله فلم يشعرا به ، إلا بعد حلول ركابه فوجم لرؤيته القصاب ، وخاف من حلول مصاب ، وتشور[1] وانحرف ، فقالت له المرأة : لا تخف إنما هو أبله مسخرة فى المحلة .

فأخذوا يتلاطفون ويتمازحون ويتظارفون ، إلى أن قرب الليل وفات النيل[2] ، فطرق الباب ووصل الزوج بلا ارتياب ، فلم يشعروا إلا والبلاء قد أقبل ، ومصابهم الأعظم فى أكنافهم قد نزل ، فاختبطوا والتبطوا[3] وانحلت قواهم وارتبطوا ، وطلب القصاب مخباه فأرته للطقيسى دربا ، وطلب الأحدب من شر زيد المهرب ، فكان فى أرض البيت تنور[4] فنزل فيه وهو مضرور، وغطته بغطائه وسترته ببعض وطائه[5] ، وأرابَ زيدَ الفتحُ فى إبطائه ، ثم توجهت إلى الباب ، وهى فى اضطراب فدخل زيد وهو سكران ، ومن تأخير فتح الباب غضبان ، وكان قد تناول مع مخدومه ولعبت بشيخ عقله بنت كُروم[6] ، فلما نزل عن السرح رأى الزوجة فى هرج ومرج ، فأنكر حالها وسألها ما لها .

فقالت : كرهت فقدك وخاطرى عندك فلا ذقت بعدك ، ولا عشت بعدك.

---

(١) خجل واستحى .
(٢) تم مراده .
(٣) تحيروا واضطربوا .
(٤) فرن .
(٥) الفرش .
(٦) الخمر .

فقال : تكذبين أى دفار[1] بل تسخرين بى أى فجار ، إنما أنت فى عركة[2] فلا طرح الله فيك بركة .

فقالت : أنت مجنون وأى حركة عندى تكون ، فشرع فى حربها ، واستطرد من سبها إلى ضربها ، وعزم على تفتيش البيت والاطلاع على ما فيه من كيت وكيت ، فخشيت أن يخرج أمرها عن دائرة الستر إلى لَوْ كَانَ ولَيْت ، فتداركت التفريط قبل وقوعه ، وبادرت إلى تلافى التلاف بالهيت[3] ، فتشكت من الأذى وقد تناولها بالضرب والبذا ، ورفعت يدها إلى الدعاء بالندا.

وقالت : إلهى وسيدى وسندى ومعتمدى ، إن كنت تعلم أنى مظلومة وبراءة ساحتى عندك معلومة ، فأنزل إلى أَمَتِكَ ملكا من ملائكة رحمتك ، يخلصها من هذا الظلوم ، ويكشف ستر هذا السر الموهوم .

فبادر التاجر بالانتهاض ونزل بثيابه البياض ، ودخل عليه وقبض على أذنيه ، وصفعه على خديه ، وقال : اتركها يا ظالم فإنك معتدٍ أثم ، وهى برية وشمائلها زكية ، وضربه ضربتين ولكمه لكمتين ، ثم أَمَّ الباب وترك الأصحاب وشرع فى الذهاب ، فلما رأى هذا زيد ، عرف أنه خديعة وكيد .

وقال : يا أفحش الفواحش وأنهش النواهش[4] تريدين خدعى وسخرى وخذلى وخترى ، وتبغين بما تبغين ختلى ومكرى ، أولست بعريف أنه لك حريف ، ثم زاد فى سبها وماد إلى كبها وضربها .

---

(١) دَفَارِ : الأمة يقال لها إذا شتمت .

(٢) أى إنما أنت لست وحدك فى البيت .

(٣) أى بالصياح .

(٤) الحيات .

فقالت : يا إلهى ، وسيدى وجاهى ، إن كنت تعلم أن هذا إلا ظلم ، أنكر الحق ورآه وما صدق ، فأنزل عليه ملكا آخر ذا جناح أخضر يأخذ بحقى منه ويكشف سترك عنه .

فقال الحرفاء وكانوا ظرفاء للصيرفى : قم غير مختفى وشدد عليه وأوصل الألم إليه ، فنهض فى ذلك المعلم وبادر إلى السلم ، ونزل إليه ودخل عليه ، وقال : اكفف يا ذا العار عن عفيفة الأستار ؛ فإنها بريئة وعما تظنه عرية ، ومد يده بلكمة وبالغ فى سبه وشتمه ، ثم خرج من الدار وبالغ فى الفرار .

فقال : ياللدُّرْبة[1] من ذى القَحْبة[2] ، الناس بواحد وأنت باثنين، وقد جعلت زوجك ذا القرنين ، ثم أخذ العصا ، وضربها ضرب من عصى .

فقالت : يا إله العالمين ، تعلم أن هذا من الظالمين ، أمدنى بالملك الأصفر صاحب الدرع والمَغْفَر ، والثوب المعصفر ، يبرىء ساحتى ويهدىء راحتى ، فإنى مظلومة وقصتى معلومة .

فقال الجزار للزيات : قم أرنا الكرامات ، وقدم صنعتك وهات ، فنهض الزيات ونزل إلى ذلك المفتات[3] .

وقال : أيها اللئيم ، كف عن الحريم ، وارجع عن لوم البرى وأقصر أيها المجترى المفترى ، ثم تناوله بعصاه إلى أن ألم قفاه ، ثم تركه فى الحركة ، وخرج هاربا وقصد جانبا .

فقال زيد : يا أوسخ القحاب ، وأوسخ ذوات السباب ، تعدين حرفاءك واحدا واحدا ، وتعرضينهم علىّ صادرا ووارداً ، ثم نهض بالعصا وتناولها مغليا ومرخصا .

---

(١) الجرأة فى الأمر .
(٢) الفاجرة .
(٣) المفتات : المستبد برأيه .

فمادت وآدت وبادت ونادت : إلهى هذا لم يعتبر بملائكتك الكرام ، ولم ينزجر بهذا الضرب والإيلام ؛ فامدنى بملك النيران ، الزَّبَنِىِّ الأسود الغضبان، يخبره بصدقى ويأخذ منه حقى ، ويفعل معه ما يجب فإن راجيك لم يخب ، فما عتم القصاب[1] أن زمجر كرعد السحاب ، وأخذ فى الاضطراب والاصطخاب ، وأسرع فى السلم الانصباب ، فلما سمع زيد العياط والخياط[2]، وزماجر الهياط والمياط[3] ، بهت وأخذه الضراط ، فدخل عليه فى بغثرة وغدمرة[4] ، وتزيا بصورة بشعة منكرة ، وخطف من يده العصا وضربه بها حتى شصا[5] ،

وقال : أى أنحس ذميم وأتعس زنيم ، أما زجرك ونهاك وكفك وكفاك من تقدم من الأملاك، أيم الله لئن لم تتركها وفى مالك ومنالك تشركها ، لتدمرن ديارك ولتمحون آثارك ، ثم تركه وذهب ، وأودعه جمر اللهب .

فلما رأى الحال نسجت على هذا المنوال استكان وطلب الأمان ، ومَعَكَ[6] عينيه وضم يديه ورجليه ، وجعل يتأوه من ألم الضراب ، وقال : كان الدعاء فى هذه الساعة مستجاب .

ثم قال من شدة كربه ، وحرقة قلبه : إلهى ومولاى كما استجبت دعاءها ، استجب دعاى ، وكما أنزلت من السماء لنصرها ملوكها ، فأخرج لها من الأرض عفريتا ينيكها ، وليكن ذلك بمرأى من عينى وأمامى حتى

---

(١) فما عتم : أى ما لبث .

(٢) الصراخ .

(٣) الاضطراب .

(٤) بغثرة وغدمرة : هياج وصخب .

(٥) أى حتى شخص بصره من شدة التعب .

(٦) أى دلك عينيه .

يسكن قلبى ويبرد أُوامى[1] ، فما صدق صاحب التنور حين سمع الدعاء المذكور ، والنداء المقبول المشكور ، حتى طفر من مجثمه كالشواظ المسجور، وأقام أمام لهوه المصاب[2] ، واستعمل من قواعد النحو الرفع والجر والانتصاب ، ورفع العمودين وأولجه المحراب ، ولا زال ذلك الإمام يتردد فى البيت الحرام ، وقد نال فى الحرم أمنا حتى رمى الجمرات وأمنى ، ثم قبل فاها وخرج مسرعا من ذراها[3] ، وخلى الدار تنعى من بناها ؛ ففتح زيد عينيه وحملق حواليه ، ثم قال : يا أقذر القحاب هكذا يكون الدعاء المستجاب .

وإنما أوردت هذا الكلام والتمثيل لك يا إمام ؛ ليتبين لكل عالم همام ، وليتبصر أولو العقل والأفهام ، الفرق ما بين قضايا الحس والعقل والأوهام ، وقد شبه العقل بجبل عال عزيز المنال ، وكل من قصد الصعود إليه والارتقاء عليه ، لا يصعده إلا من طريق واحدة منها يوصل منه إلى الفائدة ، وسلوك طريق المعاشرة مع العقلاء وذوى الآراء والأذكياء ، فى العداوة والصداقة والكدرة والرياقة واللطافة والكثافة ، والخوف والرجاء ، والابتداء والانتهاء؛ إنما هو من باب متحد لا من طريق مُتَّعِد[4] ، ولأجل هذا يا متبصر ، سلوك مثل هذه الطريق معهم متيسر ، لا متعوج ولا متعسر ، ورأس خيط هذه السموط[5] ، بالاستقامة والسلاح مضبوط ، بخلاف الجهال والخلعاء والحمقى والسفهاء فإن أمورهم منفرطة وأفكارهم وآراءهم غير منضبطة ، فتتكدر خوار العقلاء فى تعليمهم ، ويعيا طبيب الفكر فى تهذيب أحمقهم وتأديب سفيههم ، وقيل :

---

(١) الأوام : وجع الرأس ، والمعنى : يذهب عنى وجع رأسى واضطرابها .
(٢) أى المرأة .
(٣) أى من خدرها .
(٤) أى متعدد .
(٥) السموط : المفرد السمط : أى الخيط الذى ينتظم فيه حبات اللؤلؤ والخرز .

إنـــى لآمـــن مـــن عـــدو عـــاقل وأخـــاف خِـــلاً يعتريـــهِ جُنـــــون
والعقـــلُ فَـــنٌّ واحـــدٌ وطريقُـــه أدْرى وأرْصَـــدُ والجنـــونُ فُنـــــونُ

ولهذا قيل : معاداة العاقل خير من مصافاة الجاهل .

ثم قالت غرغرة[1] فى أثناء هذه القرقرة[2] : وأما ما ذكرت من البيان من مفارقة الأوطان وترك هذا المكان ، أما سمعت حديث أشرف جنس الإنسان : «إن حب الوطن من الإيمان»[3]. وقد ألفنا وطننا وحبه ، وقلع أصول محبته من قلوبنا صعبة ، وهو فى معزل عن طرق الجوارح ، ومكمن عن السوانح والبوارح ، وإنما تعرض لأولادنا تلك الآفة ، من تراكم العساكر المصافة ، وما يحصل من إقدامها من كثافة ، وأنا أخاف إن انتقلنا من هذا الوطن ، يخرج من أيدينا هذا السكن ، ولا نحصل على مأوى يليق ، أو لا توافقنا الغربة ، أو يمنع مانع فى الطريق ، فنقصد الربح فيذهب رأس المال فنخسر ما فى أيدينا فى الحال ، ولا يحصل المأمول فى الاستقبال ، وكيف وهو مسقط رأسنا ومحل أنسنا وأناسنا ، فالأولى بنا الرضا والانقياد لأوامر القضا ، وملازمة الوطن القديم والسكون تحت تقدير العزيز العليم ، وقد قيل: إنما يشفى العليل إذا ترك مشتهيات نفسه ، وقيد متمنياته فى قيد حبسه ، ولابد للمريد من ترك المراد ، وللقانع من قطع النظر عن الازدياد ، والحرية فى رفض الشهوات ، وكل ما هو آت آت .

---

(١) غرغرة : أنثى الحجل كما سماها فى أول الباب .

(٢) القرقرة : الضحك إذا استغرب فيه .

(٣) الحديث ذكره العجلونى فى كشف الخفا (١/٣٤٥) وفيه قال الصنعانى : موضوع ، وقال فى المقاصد : لم أقف عليه ، ومعناه صحيح ، ورد القارى قوله ومعناه صحيح بأنه عجيب ، وقال : إذ لا تلازم بين حب الوطن وبين الإيمان ، قال : ورد أيضاً بقوله تعالى ﴿ولو أنا كتبنا عليهم ...﴾ الآية . فإنها دلت على حبهم وطنهم ، مع عدم تلبسهم بالإيمان . وإنما فيه أن حب الوطن لا ينافى الإيمان .

وأما وقائع الأولاد وحصول الأنكاد ، وما يقع منهم بسببهم فى كل أوان، فنحسبها إحدى ما يحدث لنا من نوائب الزمان ، ونحن بل كل المخلوقات عرضة للنوائب والآفات ، وطعمة لسنابك المقدور ، ونهبة لحوادث الدهور ، ولو انتقلنا عن وطننا وتحولنا عن سكننا ، وبعدنا عن هذا الجانب ونزعنا عن الأهل والأقارب ، وجاورنا الأباعد والأجانب ، لا يطيب لنا مقام وتتكدر أوقاتنا على مر الأيام ، فلا نزال بين تذكر الوطن المألوف ، وتحنن إلى الصاحب المعروف ، فيسهل عند هذه الأنكال مفارقة الأطفال .

ثم اعلم أيها الصاحب الأعظم ، أنه لو تيسر لنا مع الانتقال انتظام الأمور واستقامة الأحوال ، وحفظت الأولاد وزالت الأنكاد وصفا الوقت ، وزال المقت ، فإن الخاطر يشتغل ونار القلب بسببهم تشتعل ، فإنه من حين وجود الولد ، يتقيد بتعهده القلب والجسد ، وتصرف الهمة إلى القيام بمصالح معاشه ، إلى حين ترعرعه وارتياشه ، ويزداد القلب تعلقا بمحبته ، ويتقيد الخاطر بالالتفات إلى عمل مصلحته ، ويتضاعف ذلك يوما فيوما وشهرا فشهرا وعاما فعاما ، فإن نابه والعياذ بالله نحو ألم ، أو أصابه ضر أو سقم ، التهبت عليه الجوارح وانقلبت الهموم على القلب والجوانح ، فإن آل ذلك إلى موت واستحال وجوده إلى عدم وفوت ، فهو المصيبة العظمى والطامة الكبرى ، وإن سلم من هذه العاهات وبلغ سن الإدراك سالما من الآفات ، ونجا إلى بر الشباب من بحر المخافات، ازدادت كلفته وتضاعفت مؤنته ، وركب والداه فى ذلك كل صعب وذلول ، وذهبا من مسالك الكد والكدح فى كل عرض وطول ، وتحملا أنواع المشاق والآثام ، وارتكبا فيما اكتسبا أصنافا من الحلال والحرام ، وهذا إذا كان مطيعا ولأوامرهما منقادا سميعا ، وأما إذا ركب جموح العقوق ونسى ما لهما عليه من حقوق ، فهى مصيبة أخرى ، وداهية كبرى، ويصير كما قيل :

ومِنْ نَكَدِ الدنيا على الحُرّ أنْ يَرى عدوًّا له ما مِنْ صَدَاقَتِه بُدٌّ

وعلى كل تقدير وأنت بهذا خبير وبدقائقه عليم ، إن الأولاد بين الأبوين وبين الآخرة سد عظيم ، ما يخلص مع الالتفات إليهم لله طاعة ، ولا على الانقطاع منهم إلى طريق الآخرة استطاعة ، وناهيك يا ذا الذكاء والفطنة إخبار من أنقذك من هذه المحنة ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥] فاسمع هذا الكلام بإذن التحقيق ، واسلك في سبر معانيه أوضح طريق ، وحقق يا ذا الإرشاد أن وجود الأولاد عند ذوى البصيرة من انتقاد نقد مزيف، ومتاع مزخرف ، وسم تحت حلوى وسرور فوق بلوى ، وعارية مردودة بعد أوقات معدودة ، وأيام محدودة ، بل لعبة من خشب مموهة بالذهب ، وطلاء من نضار على كوب من فخار ، وقد نبه على هذا رب العباد بقوله ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد:٢٠] . وكما أن الأطفال الصغار الغافلين عن دقائق الأسرار، إذا نظروا إلى اللعبة المزينة والخشبيات المصبغة المستحسنة . التهوا بها عن اكتساب الآداب ، وملازمة العلماء والمشايخ والكتاب ، فيبلغون وهم جاهلون ، وعن طريق اكتساب الكمال ذاهلون ، ويشيبون وهم أحداث ، ويتصورون أنهم طاهرون وهم أخباث ، كذلك كل من التفت إلى غير الله خاطره ، والتهت بأمور الدنيا من المال والولد سرائره وضمائره ، وحرم من الاطلاع على دقائق الملك والملكوت ، وفاته لَذَّات الوقوف على دقائق الرغبوت والرهبوت[1] ، فهو عن الله تعالى محجوب ، وفي عساكر الأموات وإن كان حيا محسوب ؛ كما قيل :

وفي الجَهْلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلِهِ وأجْسادُهم دون القبور قبورُ
وإن امرأ يُحْيِ بالعلمِ قَلْبَه فليس له حتَّى النُّشورِ نشورُ

---

(١) الترغيب ، والترهيب .

قال الله تعالى وكلمته العليا ﴿المَالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦] وهذا صريح بالشهادة على ما نقلته وجلوت صدأ قلبك بتقريره وصقلته ، فلا تكونن لاه ولا تعلقن قلبك بغير الله ، قولا واعتقادا وعملا ﴿والبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف:٤٦].

واجهد يا حبيب فى إصلاح قلبك الكليم ، واصغ لما قاله الحكيم الحليم متحرزا من نكاية العذاب الأليم ، عاملا بما يرضى السميع العليم ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّه بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨] . وإذا عملت هذا وحققته وحررته وصدقته ، فاعلم أن الأولى بحالنا والأحسن للنظر فى مآلنا أن نعد ما نحن فيه من جملة النعم ، وأن هذا الذى قُسِمَ لنا من القِسَم فى القدم ، ولا ننقل عن دائرة الرضا والتسليم قدما عن قدم ، وننظر ما يتولد من حوادث الزمان ، ولا نرخى فى ميدان الطمع العنان ، ونعرض على جامح الخاطر ما قال الشاعر :

كَم نَارَ باديةٍ شَبَّبت لغيرِ قِوىً ... على بقاعٍ وكم نَوْرٍ بلا ثَمَرِ
هَوِّنْ عليك أموراً أنت تُنْكِرُها ... فالدَّهْرُ يَأتِى بأَنْواعٍ مِنَ العِبَرِ

قال النجدى : جميع هذا المقول ، صادر من موارد العقول ، موافق لما ورد به المنقول ، لقد غصت فى بحر الفطنة على جواهر الحكمة ، فما تركت فى ميدان المسائل مقالا لقائل ، ولا مجالا لجائل ، ولكن لا ينبغى للعاقل أن يغفل عن حوادث الدهر ، ولا يسند ظهره لكواذب العصر ، فإن طوارق الآفات وخوارق العادات ، ومِحَن الزمان ، وفِتَن الدوران ، محتجبة وراء ستار ومستورة فى أنواع أطوار ، والفلك الدوار له فى علم الأدوار ، لعيبات أبكار يبرزها للنظار ، فتلعب بالأفكار ، ويذهب فى سنا برق مخارقها[1] أبصار الأبصار ، ويخطىء فى حركاتها الرأى المصيب ، ويدهش فى دجى

(١) الريح إذا اشتدت ومعها برق ورعد .

حندسها[1] الفطن الأريب ، وقد بادت الفكر وعجزت القوى والقُدر ، وحارت عقول البشر ، دون إدراك ما يبرزه كل وقت من الصور ، من وراء ستر الغيب مستعدا للقضاء والقدر ، ولم يعهد من الدهر الخؤن والزمان المجون ، إذا استقام أو قزل[2] ، أو جد أو هزل ، أو أمر بنازل فنزل ، أو ولى أو عزل، أو أقبل أو اعتزل ، أو نقض أو غزل ، أن يرسل قبل ذلك منذرا أو مبصرا أو محذرا ، ليستيقظ النائم أو ينهض الجاثم ، أو يتحرك القائم ؛ وإنما يحطم بغتة ويهجم فى سكتة ، ويأخذ على بهتة فلا يفلت منه فلتة ، ولا يمهل إلى لحظة ولا لفتة وقد قيل :

يا رَاقِدَ اللَّيْلِ مسروراً بأوَّلِهِ ... إنَّ الحوادثَ قد يَطْرُقْنَ أسْحَارَا

لا تَرْكَنَنَّ لليل طَابَ أوَّلُه ... فَرُبَّ آخرِ ليل أوقَدَ النَّارَا

وعلى هذا لو وقع منا غفلة أو ذهول ، عند قدوم هذا الجيش المهول ، فاختر والعياذ بالله واحد منا ، ونحن أحسن ما نكون سكونا وأمنا ، فكيف ترين يبقى حال الآخر وهل يصير إلا كما قال الشاعر :

ما حَالُ مَنْ كَانَ له واحِدٌ ... يُؤْخَذُ مِنْه ذَلِك الواحِدُ

وإذا بقى أحدنا منفردا وانعزل متوحدا ، ماذا يفيده الوطن والجيران والسكن ، وهل تفى لذة وصال ألفى سنة بألم فراق تلك الساعة الخشنة كما قيل :

إنْ كان فِراقُنَا على التَّحْقِيق ... فَذِى كَبِدى أحقُّ بالتمزيق

لو دام لَنَا الوصَالُ ألفى سنةً ... ما كان يفى بساعة التفريق

وقال أيضا :

لا كان فى الدهر لا أراك به ... ولا بَدَتْ فيه شمسٌ ولا قمرٌ

---

(١) الحندس : الليل الشديد الظلمة .

(٢) القزل : العرج .

وكل من لم يفتكر فى العواقِبْ قَبْلَ حلولِها ، ويتأمل فى تداركها بقدر الطاقة قبل نزولها ، ويطمئن إلى سكون الزمان ، ويسند ظهره إلى مسند الحدثان[1] ، ويحيل الكوائن على القضاء والقدر ، ويرفع يد التدبير عن تعاطى أسباب الحذر ، كان كمن ترك إحدى زاملتيه فارغة[2] ، وحشا الأخرى من الأحجار الثقيلة الدامغة ، فأنى يستقيم محمله أو يبلغ منزله ، فلا يزال حمله مائلا وخطبه هائلا ؛ فالعاقل يسعى فيما يظن نفعه ، ويبذل فى ذلك غاية جهده ووسعه ، ولا يترك الطلب ولا يغفل عن السبب ، ويعمل بموجب ما قيل :

فَـــلا وأبيـكَ لا أدَعُ احتيـاطِـى ومالِـى فى قَضَـاء اللَّـه حِيلَـــةُ

وعلى كل حال يا ربة الحَجَال ، تعاطى الأسباب لا يقدح فى الاتكال ، وناهيك يا مليحة العمل ، حكاية الحمار مع الجمل ، فسألت غرغرة أن يبين ذلك ويذكره .

[٧٧] **قال** : بلغنى أنه ترافق فى المسير عيرٌ مع بعيرٍ ، فكان الحمار كثير العِثَار ، مع أن عينيه تراقب مواطىء رجليه ، وكان الجمل على عظم هامته وعلو قامته ، وبعد عينيه عن مواطىء يديه ورجليه ، لا تزل له قدم ولا يصل إليه ألم ، فقال الحمار للبعير : أيها الرفيق الكبير مابالى فى المسير كثير التعثير دائم الوقوع والزلل ، والعثار والخطل[3] ، لا أخلو من حجر يدمى منى الحافر ، أو عثرة ترمينى فى حفرة حافر ، مع أن عينى تراقب يدى ولا تنظر سواهما إلى شى ، وأنت لا تنظر مواطىء أخفافك ، ولا تعرف على ماذا تقع رؤس أطرافك ، لا حجر يصيب خفك ، ولا شوكة تخرق كفك، ولا جورة[4] تقع فيها ولا تختل عن طريق تمشيها ، ولا أدرى هذا مماذا .

---

(١) الحدثان : نوائب الدهر .
(٢) الدابة من الإبل وغيرها يحمل عليها .
(٣) أى الاضطراب والوقوع فى محذور .
(٤) الحفرة .

قال أبو صابر : يا أخى نظرك قاصر وفكرك غير باصر ، لا تراقب ما بين يديك ، ولا تنظر ما أمامك ألك أم عليك ، فإذا أدهمك ما دهاك عجز عنه نُهاك[1] ، فلا تشعر إلا وقد وقعت ، وانخرق ما رقعت ، فلا يمكنك التدارك والتَّلافِ ، إلا وأنت رهين التَّلاف .

وأما أنا فأراقب ما يصير من العواقب ، وأنظر أمامى الطريق على بعد، فأميز المسلوك من قبل ومن بعد ، فلا أصل إلى صعب إلا وقد أذللته ، ولا إلى وعر إلا وقد سهلته ، ولا إلى وَهْدَة إلا وقد عرفت طريقها ، ولا إلى عَقَبَة إلا وقد كشفت واسعها ومضيقها ، فأستعد للأمر قبل نزوله ، وأتأهب للخطب قبل حلوله ، واحتال لقطعه قبل وصوله ، وأحله قبل أن يعقد وأقيمه دون أن يقعد ، وهذه قاعدة للفقهاء ، وأصل كبير للحكماء من العلماء ، أنهم قالوا : إن الدفع أهون من الرفع ، ومن كلام الألباء ، وأصول حذاق الأطباء قوله :

الطِّبُّ حفظُ صحةٍ بَرْءُ مَرَض ... مِنْ سَبَبٍ فى بَدَن إذَا عَرَضَ

وإنما أوردت هذا المثل عن الحمار والجمل ؛ لتعلمى يا ست الحجل أنه لابد لنا من أخذ الأهبة قبل النكبة ، فما كل مرة تسلم الجرة ، وقد قرب وقت وضع البيض ، وبعده يدهمُنا من سيل العسكر الفيض ، فلابد من إعمال الفكر المصيب ، فى وجه الخلاص من هذا الأمر العصيب ، كما قيل : مهد لنفسك قبل النوم مضطجعا .

قالت غرغرة الحكيمة المدبرة : جميع هذه الأخبار لاتخلو عن دقيق الأنظار وتحقيق مصيب الأفكار ، وغامض معانى الأسرار ، وكل عاقل يقبله ويقبل يديه ، ويمتثله ويقبل عليه ، وكل فكر مصيب يجثو للاقتباس بين يديه ،

---

(١) عقلك .

ولكن طلاب الأغراض الدنيوية والمسارعون إلى نيل المرادات والأمنية ، على فِرَقٍ شتى ، وأنا أفصلها حتما ، منهم من يبلغ الآمال بقوة الجند وبذل الأموال ، ومنهم من يساعده الدهر ويعاضده معاون العصر ، وينهض له مسعد التقدير فيقوم معه كل كبير وصغير ، كما قيل :

وإذَا أَرَادَ اللَّـهُ نُصْـرةَ عَبْـدِهِ كانـت له أعـداؤه أنْصـارا

فيقيض له المساعد ، ويعضده المقارب والمباعد ، فلا يحتاج إلى كبير سعى ، ولا فى استماع النصيحة ونفعها إلى وَعْى ، بل يصل إلى قصده بدون كده وبغير جهده وجده ، فمهما فعل أنجح ومهما قصد أفلح ، وحيثما توجه أربح ، وأينما مال أرجح ، ومنهم من يحتاج إلى جهد جهيد ، وسعى مديد وكَدٍّ طويل عريض ، وجِدٍّ عريض غير غريض ، مع مساعد ناصح ومعاون صالح ، وتعاطى أسباب وقرع أبواب ، وفكر دقيق ومسعد رَفيق ، حتى يبلغ مراده ويصل إلى ما أراده ، ومنهم من تغلب عليه العجلة والطمع وشدة الحرص والهلع ، فيسارع إلى نيل ما يرومه ، فيلقيه فى هوة الحرمان حرصه وشومه ، فيقع من التعب والنصب فى هوه ، ويحرم لكونه اعتمد على ماله من حول وقوة ، فيصير كما قيل :

الحـرص فوتنـى دهـرى فوائـده وكلمـا زدت حرصـا زاد تفويـتا

ومنهم من يتمنى ثم يتكاسل ، ويرجو ويترقب ويتساهل ، فيحرم مقصده ويرد عجزه عن مراده يده ، وقد قيل فى المثل : تزوج التوانى بنت الكسل فأولد الزوجان الفقر والحرمان ، فانظر يا ذا الركون والوقار والسكون نحن من أى هذه الفرق نكون ، وأنت تعلم أنا لا نقدر على مقاومة العقاب ، ولا أن ندفع عن أنفسنا ما ينزل بنا من عقاب ، فإنه إذا طار العقاب يبلغ الثريا والسحاب ، ونحن إذا تحركنا فى الهوا فلا نقدر أن نرتفع عن وجه الثرى ، وقد قيل فى المثل كما ترى : أين الثريا من الثرى ، وقيل : من تعلق بخصم

هو أقوى منه فقد سعى فى هلاك نفسه برجله ، ووضع تراب الدمار على رأسه بيده ، وكنت يا بدرى أنشدتك من شعرى :

ومَنْ يَتَشَبَّثُ فى العداوةِ كَفُّه بَأكْبَرَ منه فهو لا شَكَّ هالِكُ

وكان مثله مثل النملة الخفيفة ، التى نبتت لها أجنحة ضعيفة ، فتحركها دواعى الطيران ، فتتصور أنها صارت كالنسور والعقبان ، فبمجرد ما ترتفع عن الثرى إلى الهواء التقمها عصفور ، أو خطفها أصغر الطيور ولهذا قيل :

إذَا ما أرَادَ اللَّهُ إهْلاكَ نَمْلَةٍ أطَالَ جَنَاحَيْهَا فَسِيقَتْ إلَى العَطَبِ

ونحن وما لنا اطلاع على مكامن الغيب فنزه نفسك عن هواجس الريب، وليس لنا مساعد من الأقارب والأباعد ، ولا لنا مال ولا خيل ولا رجال ، ونحن أقل من أن يساعدنا زمان ، أو يعيننا على العُقاب أعوان ، فلم يبق إلا الركون والاتكال على حركات السكون ، فما تدرى غدا ماذا يكون .

واعلم أن حركاتنا مع العقاب والجامع لنا معه من الأسباب متحدة فى الحقيقة ، وطريقتنا معه من جنس ما له من طريقة ، وهى الطَّيْرِيَّة وكلنا فيها سوية ، وهو منها كإعجاز القرآن من الفصاحة فى الطرف الأعلى ، ونحن منها كأصوات الحيوان فى الأطرف الأدنى ، فالأولى بحالنا الاصطبار إلى أن يصل لكسرنا من عالم الغيب انجبار ، كما قيل :

مَهْلاً أبا الصقْر فكم طائر خَرَّ صريعًا بعد تَحْليق
زَوَّجْتَ نَعِمِى لم تَكُن كُفأهَا آذنها اللَّهُ بتطليقِ

وقيل :

الأمرُ يَحْدُثُ بعدَه الأمْرُ والعُسْرُ مُقْتَرِنٌ بهِ اليُسْرُ
وحَلاوَةُ الصَّبْيَان مِنْ عَسَل تُلْهِى وإنَّ حَلاوتِى الصَّبْرُ
والصَّبْرُ يعقُبُ بَعْدَه شكرٌ مِنْ نِعمةٍ تَأْتِيكَ أوْ أجْرُ

فقال الذكر : هذه الفكر من الصواب قريب ، وسهمها عند أولى البصائر والتجارب مصيب ، ولكن من يتكفل بوفاء العمر الغدار ، والإيصال إلى الأوطار ، ويقوم بالأمن من حوادث الليل والنهار ، وأنسيت إنشادى فى الوادى يا زين النادى ، وجمال الحاضر والبادى :

لَئِنْ بادَرْتُ فى تَسْلِيمِ رُوحِى ... أَتَانِى مِنْ وَرَائِى مَنْ يعوقُ

وإِنْ أَسْرَعْتُ نَحْو الوصْلِ عُذْراً ... فَعُمْرِى مِنْ وَرا ظَهْرِى يَسُوقُ

ثم قال النجدى : والرأى السديد عندى والذى أعيده فيه وأبدى ، أن نتوجه إلى حضرة العقاب ونكشف عن وجه مرادنا لديه النقاب ، ونطلب منه الأمان من عوادى الدهر ونكبات الزمان ، ونستظل بجناح عاطفته ، وننتظم فى سلك جماعته وخدمته ، فإنه ملك الطيور وبيده أَزِمَّة الجمهور ، وهو وإن كان سلطان الجوارح والكواسر ، وشيمته سفك الدماء والتمزيق بمخالبه النواسر ، لكنه ملك عالى الهمة ومن شيم الملوك الشفقة والرحمة ، ولا تقتضى همته العالية إلا الشفقة الوافية ، خصوصا على من يرتمى لديه وينتمى إليه ، ولا تدعه شيمته الأبية وهمته العالية الحمية ، وشمائله الشهمة الملوكية أن يتعرض إلينا بضرر أو أن يطير إلينا منه شرر .

قالت غرغرة بعد الاستغراب فى الكركرة : العَجَب كل العجب من رأيك المنتخب، إنك تخلط منه الغث بالسمين ، وتسوق فيه الهجان مع الهجين، فتارة تصيب حدقة الغرض ، وأخرى تصرف السهم حيث عرض فتصير كما قيل :

تَلَوَّنَتْ حتى لستُ أدرى مِنَ الهَوى ... أَرِيحُ جنوب أَنْتَ أَمْ ريحُ شمال

هذه المصائب التى نشكوها ، والنوائب التى نقرأ سورها ونتلوها ، هل هى غير ما نقاسيه من العذاب ونعانيه من أليم العقاب ، فى لحظة من ملاقاة عسكر العقاب ، ثم إنك أنت تحركت فى آرائك وسكنت ، وشرقت فى أفكارك وغربت ، وتباعدت وتقربت ، وارتفعت يا سلطان وامتنعت وسقطت ، وجُلت

وحُمت ، وقعدت وقمت ، ثم أسفر رأيك السديد وفكرك الرشيد وأمرك السعيد، عن أن تجرنا بسلاسل الحديد إلى العذاب الشديد ، وتخلدنا فيه الدهر المديد ، لا والله بل تريد أن نمشى بأرجلنا إلى الشبكة ، ونلقى بأيدينا أنفسنا إلى التهلكة ، وقد أشبهت فى هذه الحركة مالكا الحزين والسمكة ، فقال النجدى لابنة السعدى : أريحى وغنى ، شكوى الجريح إلى العقبان والرخم ، فقالت له: أزل الغصة بقص هذه القصة .

[٧٨] **فقال** : كان فى بعض المروج من قرى سروج ، نهر كثير الحيتان شديد الجريان ، وفى مكان منه مصون مأوى لمالك الحزين البَلَشُون ، فكان يتصرف فى السمك تصرف المالك فيما ملك ، قضى فى ذلك عمره ، وزجى أوقاته فى طيب عيش ومسره ، إلى أن أدركه المشيب ورحل عنه العمر القشيب[١] ، وكساه خياط الدهر دَلَقَ[٢] ﴿**وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ**﴾ [يس:٦٨] ورأى من الكبر أصناف العبر إلى أن ضعفت قوته عن الاصطياد ، وجرى عليه من الالام والأنكاد ، ومن نوائب الدهر ما الزمان به معتاد ، ، فصار يمر عليه برهة من الأوقات ، وهو عاجز عن تحصيل الأقوات .

فتوجه فى بعض الأحيان ، وقد عَلَتْهُ كآبة الأحزان ، ووقف على النهر متفكرا فى تصرفات الدهر ، فمرت به سمكة لطيفة الحركة ، فرأته فى ذل الانكسار ، سابحا فى بحر الافتكار ، لا قدرة له ولا حركة ، ولا نهضة لاختطاف السمكة ، فلم يلتفت إليها ولا عَوَّل عليها ، وقد أوطأته الحوادث أقدام الهموم الكوارث ، وبدل ربيع شبابه بخريف الهِرَم ، وحرارة حربه ببرودة السِّلْم ، فوقفت لديه وسلمت عليه وسألته عن موجب تفكره ، وسبب تحزنه وتحيره .

---

(١) السعيد الجميل .

(٢) أى مرور عمره بسرعة .

فقال : تفكرت ما مضى من الزمان الناضر ، وما تقضى فيه من طيب العيش وانشراح الخاطر ، وقد تبدل وجوده بالعدم ولم يحصل من ذلك سوى الذنوب والندم، وقد وهنت العظام واستولى على الجسد السقام ، وتزلزلت أركان الأعضاء ، وتراكمت فنون الأدواء ، واشتعل الشيب واتقد ، وحَرُّ الآلام وَقَدَ :

عَزَمْتُ على إخْلاَءِ جسمي رُوحَهُ ... مِنْ خَرْقِ شِيْبٍ كَلَّ عَنْهُ الرَّاقِعُ

قلتُ اسْكِنِيه يا عُمَارَةَ عُمْرِهِ ... قالت فكيف وبَيْتُ جِسْمِكَ وَاقِعُ

ثم قال : ولم أفق من هذه السكرة ولا وقعت فى هذه الفكرة ، إلا وسفينة العمر بالساحل قد أرست ، وأصيل شمس العيش على قُلَّة الفناء أمست، فما أمكننى إلا التلافى بالتوبة والندم ، قبل حلول نوائب الأجل وزلة القدم ، والتطهر من جنابة المظالم بمياه الاستعبار ، والالتجاء إلى جانب الحق بالإلظاظ[1] فى الاستغفار ، وغسل أوساخ الذنوب والمظالم بدموع الإنابة والاعتذار :

ومَا أَقْبَحُ التَّفْرِيطَ فى زَمَنِ الصِّبَا ... فكيف به والشَّيْبُ للرَأْسِ شامِلُ

فاعلمى أن جامع هواى قَلَع ضرس الآمال والطمع ، وجارح متمناى نزع خوافى الشره والهلع ، وقد قدمت إلى هذا المكان لأنتخل من الأسماك والحيتان ، فإنى طالما أغرت على عشائرهم وأولادهم ، وخضت فى دماء قلوبهم وأكبادهم ، وشتت شملهم وخوفت جلهم وقلهم ، وأرعبتهم وأرهبتهم ، وأقلقتهم وفرقتهم ، وخربتهم وبالدماء شرقتهم، فرأيتُ براءةَ الذِّمة فى الأولى أولى ، والمبادرة بالتوبة قبل المصير إلى الأخرى أحرى ، فلعل أحمال الذنوب تخف وسحائب الغفران تكف .

---

(١) الإلظاظ : جمع لظ . ويقال لظ بالشىء أى لزمه وألح عليه . والإلظاظ : أى الإلحاح والملازمة .

فلما سمعت السمكة هذه الخديعة ووعت ما فيها من حركة بديعة ، تشربتها أضلاعها ودعاها انخداعها إلى أن قالت : فما ترى أيها العبد الصالح أن أتعاطاه من المصالح ، فقال: أبلغي السمك هذا الكلام بعد إبلاغ التحية والسلام ، وأن يكون القوم من بعد اليوم ، آمنين من سطواتى سالمين من حملاتى ، ساكنين إلى حركاتى بحيث تتجلى الظلماء ، ويعود بيننا الحرب سلما ، وينام السمك فى الماء .

قالت : لابد من أخذ العهود على الوفاء بهذه العقود ، وأقلها المصافحة على المصالحة ، ثم تأكيد الأيمان بخالق الإنس والجان ، ولكن كيف أصافيك وأنا طعمتك ، وأنى أتخلص من فيك إذا وضعت فيه لقمتك ، قال لها : أبرمى هذا العلف ، واربطى به حنكى لتأمنى التلف، فأخذت قبضة من الحشيش وفتلت ، وإلى ربط فكه أقبلت ، فعندما مد منقاره إلى الماء وقربت منه السمكة العمياء ، لم يفتر أن اقتلعها ثم ابتلعها .

وإنما أوردت هذه اللطيفة يا ذا الحركات الظريفة ؛ لتعلم أن قربنا من العقاب ألقى بنا أنفسنا إلى أليم العقاب ، وأين عَزُبَ عنك نُهاك ، حتى تسعى بنا إلى عين الهلاك ، ونحن قوت العقاب وغذاؤه ، ولداء جوعه شفاؤه ودواؤه، وهل يركن إلى العقاب يؤمن منه ضرب الرقاب ، وقد قيل :

أنفاسُه كَذِبٌ وحشوُ ضَمِيره دَغْل وقربَتُه سِقَامُ الرُّوح[1]

وقد قيل :

أَنْهَاكَ أَنْهَاك لا آلوك معذرة عن نَوْمَةٍ بين نَابِ اللَّيْثِ والظُّفْر

قال النجدى : اسلمى يا قرينة الخير ، واعلمى أن الريح وقت الربيع تكسو أكناف الأشجار من أنواع الأزهار ، ووجه الصحارى والقفار من أنوار

---

(١) دغل : فساد وحقد .

الأنوار ، ما يدهش البصائر ويروق الأبصار ، وينعش الأجسام ويشفى الأسقام ، ويبرد الغليل ويبرئ العليل ، لا سيما وقت السحر ونسيم الصبا فى ضوء القمر ، يربى القلب والروح ويُحْيى الصَّبُّ المجروح ، وكذلك المعرفات النشر واللواقح[1] ، والمعطرات بطيب الروائح ، ودونك قول الحق فى كلمته ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ [الروم:٤٦] وفى المصيف الحرور العسيف[2] والسموم العصيف المذيب المذيف[3] ، وفى الشتاء وأيام الخريف الصرصر المخيف[4] ، يصفر اللون ويغير الكون ، ويعرى الأشجار ، ويسقط الثمار ويثير الغبار ، وربما كانت إعصارا فيه نار، وتسقم الصحيح وتطير الهشيم فى الريح ، ومنها الأعجاز الموحشات[5] والأيام النحسات ، والقواصف والعواصف والحواصب[6] والحراجف[7] الصرصر، والنكباء[8] والزعزع[9] ، والرخاء ، وقد قال فيها العزيز العليم ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٤١-٤٢] .

ثم اعلمى يا ربة الحجال وفتنة الرجال ، أن النار تحرق من يقربها ، وتذهب ما يصحبها ، وتنشف الطراوة ، وتشوه الطلاوة ، وتلتقم ما تجده،

---

(١) الرياح .

(٢) الشديد .

(٣) القاتل .

(٤) الرياح الشديدة الباردة .

(٥) النخل .

(٦) الحواصب : الرياح الشديدة التى تحمل التراب ، والمفرد : حاصب .

(٧) الحراجف : مفرد حرجف وهى الريح الباردة شديدة الهبوب .

(٨) النكباء : الريح الشديدة الباردة .

(٩) الزعزع : الريح الشديدة .

وتلتهمه وتزدرده ، وتسود بدخانها ، وتؤلم الأجسام بقربانها ، وتمحو الآثار ، وتهدم الديار ؛ مع أنها تنضج الأطعمة ، وتصلح الأغذية ، وتهدى النور ، وتدفى المقرور[1] ، وترشد الضال فى القفار ورؤس الجبال ، قال من يقول للشئ كن فيكون ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُن نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة:٧١-٧٣] .

وكذلك الما يا ذات الثغر الألمى يذهب الظما ، ويجلب النما ، ويبرد الصدور ، ويطفئ الحرور ، وينبت الزروع ، ويدر الضروع ، ويحمل المراكب وما فيها من مركوب وراكب ، قال القادر على كل شىء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠] وإذا طغت المياه والعياذ بالله ، أغرقت المراكب ، وخطفت الراجل والراكب ، واقتلعت الأشجار ، واقتطعت الأحجار، وأتلفت الزروع والثمار ، وإن تراكمت الأمطار قطعت سبل الأقطار ، وهدمت الديار ، وردت الآبار ، وسل عن ذلك ملابس الأسفار ، ومجالس الرتب من أهل الأمصار ، وإذا تكاثف الرَّش[2] غرقت مِصْرُ وآذى أهلها العطش ، ونعوذ بالله من هجوم السيل فى ظلام الليل .

وكذلك التراب يا زين الأحباب ، ينبت الحصرم والعنب ، والثمر والحطب ، والشوك والرطب ، ويشرع سنان الشوك المحدد ، وغصون السهم المسدد ، ويربى الورد والأزهار والرياحين والأنوار ، والأقوات والثمار ، والرياض النضرة والغياض الخضرة ، ثم إذا ثار وهاج الغبار خرج من تحت الحوافر فأعمى النواظر ، ففيه الحلو والمر والزَّوان والبُرّ[3] ، والناعم والخشن ، والقبيح والحسن ، والأرض مهاد وفراش ، وفيها أسباب المعاش.

---

(١) المقرور : الذى يشعر بالبرودة .

(٢) المطر القليل .

(٣) الزوان : الزينة . البرّ : الصالح .

وهذه المضرة والمنفعة مركبة فى هذه العناصر الأربعة ، التى هى أصل الكائنات وسنن ما نشاهده من المخلوقات ، وإذا كان ذلك كذلك وقاك الله شر المهالك ، وأوضح لك أوضح المسالك ، فاعملى بالتحقيق يا صاحبة الثغر العقيق ، أن هذا الملك الأعظم بل كل أولاد بنى آدم مركبون من الرضا والغضب ، والحلم والصخب ، والرفع والحط ، والقبض والبسط ، والقهر واللطف ، والظرافة والعنف ، والخشونة واللين ، والتحريك والتسكين، والبخل والسخاء ، والشدة والرخاء ، والوفاء والجفاء ، والكدورة والصفاء .

واعلمى يا نعم العون وقرينة الصون ، أن هذا الكون سروره فى شروره مندمج ، وورده فى صدوره مندرج ، وصفاؤه مع كدره مزدوج ، وجفاؤه بوفائه ممتزج ، فيمكن أن العقاب لكونه ملكا مالك الرقاب ، مع وجود هيبته القاهرة ، وسطوته الباذخة ، وخلقه الشرس الصعب الشكس[1] ، إذا رأى ضعفنا وذلنا وانكسارنا وقلنا وترامينا لديه وتعولنا عليه ، يضمنا إلى جناح عاطفته ويسبل علينا خوافى مرحمته ، ويعاملنا بالألطاف ويسمح لنا بالإسعاف دون الإعساف ، ويعمل بموجب ما قيل :

لكل كريم عادةٌ يُستَعْدِهَا ... وأنتَ لكلِّ المكْرُمَاتِ إمَامُ

والقادر على الكسر والجبر لا سيما إذا كان من ذوى النباهة والقدر ، لا يعامل ذوى الكسر بالكسر لأنا فى مقام الأبناء وهو فى مقام الأبوة ، والتقوى على الضعيف ضعف فى القوة ، وقالوا : المصغر لا يصغر وسجدة السهو لا تكرر .

قالت غرغرة ذات التبصرة : هذا وإن كان داخلا فى حيز الإمكان ؛ لكن أخاف يا ذا الألطاف ، أنا بمجرد الوقوف بين يديه فى الصفوف ، لا

---

(١) السيء الخلق .

نمهل بأداء الكلام ولا للثبات فى المقام ، بل نعامل بالتمزيق والتخريق ، وننجر بعد فى الطريق ، وتهوى بنا خواطف الطير فى مكان سحيق ، فيفوتنا هذا المطلب إذا قيل الطبع أغلب ، وهذا إذا وصلنا إليه وتمثلنا بين يديه ، وأما إذا اعترضنا دونه عارض وجرحنا من جوارح الطير معارض ، ولا حول يحمينا ولا قوة تنجينا ، فينتف ريشنا كل باغ ، ويتجاذب لحمنا كل طاغ ، فيصير مثلنا مثل النمس والزاغ[1] . فسأل اليعقوب تلك الرقوب ، كيف هذا المثل أخبرينى يا ست الحجل .

[٧٩] قالت : كان فى بعض البساتين العاطرة ، والرياض الناضرة ، مأوى زاغ ظريف حسن الشكل لطيف ، فى رأس شجرة عالية أغصانها سامية ، وقطوفها دانية ، فاتفق لنمس من النموس ، فى وكره ضرر وبوس ، فانزعج عن وطنه ، واحتاج إلى مفارقة سكنه ، فقاده الزمان إلى هذا المكان، فراقه منظره وشاقه نوّره وزهره ، وأعجبه ظله وثمره ، وأطربه بخريره نهره ، فعزم على السكنى فيه وتوطن إلى أن يتوطن فى نواحيه ، إذ رآه أحسن منزل ، وإذا أعشيت فانزل .

ووقع لاختيار ذلك الطاغ على وكر فى أصل شجرة الزاغ ، فسوى له وكرا وحفره ، فى أصل تلك الشجرة ، وألقى عصا التسيار واستقرت به هناك الدار ، فلما رأى الزاغ هذه الحال دلخله الهم والأوجال ، وخشى أن يتدرج من أدناها ويتدحرج إلى أعلاها ، وينشد الأصحاب فى هذا الباب :

ولمَّا مَضَى الشَّوقُ إلى نَحْوِ أبى طَوقٍ
تَحَرَّجْتُ ولكِنِّى مِنْ تَحتِ إلَى فَوقٍ

فيصل إلى وطنه القديم ويذيقه العذاب الأليم ، فليس له الخلاص من هذا الاقتناص ، إلا مفارقة الوطن والانزعاج بالتحول عن السكن ، وكيف يفارق ذلك النعيم ويسمح بالبعد عن الوطن القديم ، وهو كما قيل :

---

(١) النمس : حيوان فى حجم القط . والزاغ : الغراب الصغير .

بـــلادٌ بهـــا نِيطَـــتْ علىَّ تَمَائِمِـى وأوَّلُ أرْض مَسَّ جلْـدِى تُـرَابَها[1]

فغلبت محبة وطنه على قلبه ، ولم يطاوعه على فراقه لشدة حبه ، ثم اعتراه فى ذلك الوسواس وأخذ يضرب أخماسا لأسداس ، فى وجه الخلاص من هذا الباس ، فرأى المدافعة أولى ، والممانعة عن جوارحه لخاطره أجلى ، ثم افتكر فى كيفية المدافعة وسلوك طريق الممانعة ؛ فلم ير أوفق من المصانعة ، وتعاطى أسباب المخادعة ليقف بذلك أولا على حقيقة أمره ، ويعرف معيار خيره وشره ، ويصل إلى مقدار قوته وضعفه ، ورصانة عقله وفهمه وسخفه ، ويسبر حالتى غضبه ورضاه ، ويدرك غور أحواله ومنتهاه ، ثم يبنى على ذلك أساس دفعه وهدم ما يبنيه من قلعته لقلعه .

فهبط إلى النمس من الهواء وحفظ شيئا وغابت عنه أشياء ، وسلم عليه سلام المحب على الحبيب ، وجلس منه بمكان قريب ، وخاطبه خطاب ناصح لا مريب ، وابتهج بجواره، واستأنس بقرب داره ، وذكر له أنه كان وحيدا وعن الجليس الصالح والأنيس الناصح فريدا ، وقد حصل له الأنس بمجاورة النمس ، وأنه صدق من قال ، فى هذا المقال:

انْفِـــرَادُ المَـــرْءِ خَيْـــرٌ مِـــن جَلِيـــس السُـــوْءِ عِنْـــدَهُ
وجَلِيـــسُ الخَيْـــر خَيْـــرٌ مِـــنْ جُلُـــوس المَـــرْءِ وَحْـــدَهُ

فاستمع النمس حديث الزاغ وما طغى بصر بصيرته عن مكايده وما زاغ ، ثم افتكر فى نفسه ونظر فى مرآة حدسه ، فرأى أن هذا الطير بخبث السيرة مشهور ، وبسوء السريرة مذكور لا أصله زكى ، ولا فرعه علىٌ ، ولا غائلته مأمونه ولا صحبته ميمونة ، ولا خير عنده ولا مير ، بل يخشى منه الضرر والضير ، وكأنه فيه قيل :

---

(١) النيط : البعد . أى بعدت .

وهُـو غُـرَابُ البَيْـن فى شُؤمـهِ لَكِـن إذا جئْنَـا إلى الحَـقّ زَاغَ

ولم يكن بيننا وبينه قط علاقه ، ولا واسطة محبة ولا صداقة ، وأما العداوة فإنها مستحكمة ، وكل منا للآخر مأكلة ومطعمه ، ولا أشك أنه إنما قصد طريقة سوء ومكيدة نكد ، فإن أضعت فيه الفرصة أطلت الغصة ، ووقعت من الندامة فى قصة وحصة ، ولا يفيدنى إذ ذاك الندم أنى وقد فات المطلوب وزلت القدم ، وأحزم الحزم سوء الظن بالناس ، فالذى يقتضيه الحزم والرأى السديد والعزم القبض عليه إلى أن يظهر ما لديه .

ثم وثب من مريضه ، وأنشب فى الزاغ مخاليب مقبضه ، وقبضه قبضة أعمى لا كالقابض على الما ، فلما رأى الزاغ هذا النكد ، وأنه قد صار كالفريسة فى مخاليب الأسد، ناداه يا كريم الخير ، ويا أيها الجار الحليم عن الضير ، أنا رغبت فى مصادقتك ، وجئتك محبا فى موافقتك ومرافقتك ، وأردت إزالة وحشتك ومؤانستك ، بإبعاد دهشتك ، وحاشاك أن تخيب ظنى فيك ، وتعامل بالجفاء من يوافيك وأنشده :

وحَاشَاك أنْ تَمْشِى بوَجْهكَ مُعْرِضًا ومَا يحْسُن الإعْراضُ عن وَجْهكَ الحَسَنُ

والكِرَامُ لا يعاملون الجلساء إلا بالمؤانسة وحسن الوفاء ، والإبقاء على الخير والبعد من الضير ، وأنا قد صرت جليسك وجارك وأنيسك وقد قيل :

وكنتُ جَلِيسُ قَعْقَاعُ بنُ شَوْرَ ولا يَشْقَى لِقَعْقَاع جَلِيسُ

مع أنه لم يسبق منى سبب عداوة ، ولا ما يوجب هذه الفظاظة والقساوة، وهذه أول نظرة فما موجب هذه البدرة ، وما سبب هذه النفرة .

قال النمس : أيها الزاغ الكثير الرواغ وأنحس باغ ، وأنجس طاغ ، اسمك ناطق أنك منافق وهو خبر صادق ، إذ هو فى الخارج للواقع مطابق ، ورؤيتك شاهدة أنك تنقض المعاهدة ، وعين منظرك دل على مخبرك ، وقد قيل :

والعيـنُ تَعْـرِفُ من عَيْنَـى مُحَدِّثُها إنْ كَان مِـنْ حِزْبِـهَا أَمْ مِنْ أَعَادِيها

مَنْ أين بيننا صداقة ، ومتى كان بين النمـوس والـزاغ علاقـة ، وكيـف تنعقد بيننا صحابة وأنى يتصل لنا مودة أو قرابة ، بين لـى كيفيـة هـذا السبب ومن أين هذا الإخاء والنسب ، أما أنت فلـى طعمـة ، وأمـا أنـا فلحمـى لسدى غذائك لُحْمَة ، يسوءنى ما يسرك وينفعنى ما يضرك :

اللـــه يَعلمُ أنَّـــا لا نُحِبُّـكُـــم ولا نَلُومُكُـــم أنْ لا تحبُّـونَـــا

أنا واقف علـى مـا فـى ضميرك ، وعـالم بسـوء فكرك وتدبيرك ، قـد اطلعت منك على الهواجس كما اطلع ذلك الماشـى علـى مـا فـى خـاطر ذلـك الفارس ، قال الزاغ : بين لى بلا جدل ، كيف هو هذا المثل .

[٨٠] **قال النمس** : ذكر رواة الأخبار ونقلة الآثار أنه ترافق فى بعض السباسب[١] راجل وراكب ، وكان مـع الراجل من البضـائع رزمـة[٢] ، وقـد حملها كارة[٣] وحزمها أوثق حزمة ، وقـد أعيـاه حملهـا حتـى أعجـزه نقلهـا ، فقال للراكب : أيها الرفيق الصاحب لو ساعدتنى ساعة بحمل هذه البضاعـة ، لرحتنى ونفست عنى وشرحتنى :

لـذى المَجْـــد يَحْمِـــلُ أثْقَـالَـه قَـوِىٌّ العِظَـــامِ حَمُـــولُ الكَلَـــفِ

قال الفارس : لا أُكِلُّ فرسى ولا أتعب نفسى ونفسى ، فإن مركوبـى لـم تقطع البارحة عليقه ، وأنا خائف أن لا يقطع بـى طريقـه ، وإذا خفـت تخلفـى فى سيرى فأنى أتكلف حمل أثقال غيرى .

---

(١) السباسب ، مفردها سبسب : الصحراء .

(٢) متاع .

(٣) أى أدارها ولفها .

فبينما هما فى هذا الكلام إذ لاح أرنب فى بعض الآكام ، فاطلق العنان وراء الأرنب ، وذهب وراءها كرأى الزنادقة[1] كل مذهب ، فوجد فرسه قوية النهضة سريعة الركضة ، فرأى أنه أضاع حزمه فى عدم أخذه الرزمة، وما ضره لو أخذها وساق وذهب إلى بعض الآفاق ، وأقام بها أوده وانتفع بها وولده ، وترك الماشى بلا شئ ، ثم رجع بهذه النية الضارة ليحمل عن الماشى الكارة ، وقال له : اعطنى هذا الحمل المتعب ، لأريحك من حمله فى هذا المذهب ، وابلع ريقك واقطع طريقك ، فقال له : قد علمت بتلك النية وما أضمرت من بلية ، فاتركنى بحالى فلى حاجة بمالى ، ثم أن النمس كسر الزاغ وحصل له بأكله الفراغ .

وإنما أوردت هذا المثال ؛ لتعلم يا فحل الرجال ، أن العقاب لا يؤمن ولا يقطع فيه بالظن الحسن ، ولا يركن إلى خطفة بوارقه ، بمخاليب صواقعه[2] وصواعقه ، ولا إلى غوائله وبوائقه ، وهذا إن سَلِمَتْ شُقَّة حياتنا من تشقيق غواشيه ، وتخلص برد وجودنا من تمزيق حواشيه ، وإن بينك وبين هذا المراد خرط القتاد[3] ، والموانع التى هى دون سعاد[4] ، فما الوصول إلى ملك الطير قريب التناول فى السير ، ولا سهل المأخذ ولا سريع المنفذ ، وأين الحَجَل من العُقاب ذاك فى نعائم النعيم وهذا فى عِقَاب العِقَاب ، فتدبر عاقبة هذا الأمر وتأمل فى الفرق بين التمر والجمر ، والظاهر عندى وما أدى إليه فكرى وجهدى ، أن عاقبة هذه الأمور ليس إلا القطوع والقصور، دون الوصول إلى الملك فى القصور .

---

(١) الزنادقة : فرق متعددة الأهواء لا تؤمن بالآخرة والربوبية ، وتبطن الكفر وتظهر الإيمان .

(٢) طائر ، وهو الصفارية .

(٣) خرط القتاد : شجر صلب له شوك كالإبر . أى أنه لا يُنال إلا بمشقة عظيمة وأن خرط القتاد أسهل منه .

(٤) السرور والسعادة .

قال الذكر : لقد كررت عليك مرارا ، وأسندت إلى سمعك إنشاء أخبارا ، أن علو همة هذا الملك وفضله الخالى عن شرك وكرم نِجَاره[1] ، أمن خادمه وجاره وفيض إحسانه، وبسط كرمه وامتنانه ، وانتشار صيت شمته ، واشتهار رأفته ورحمته ، لا يقتضى حرمان من قَصَده وأَمَّ جنابه اعتمده ، ولجأ إلى جناح عاطفته وتشبث بذيل ملاطفته ، وحاشاه أن يصم مصون همته بابتذال دناءة ، ويشوه جمال وفائه لمن ترفق له بنكتة جفاء تخيب رجاءه ، خصوصا إذا رأى منى خضوع العبودية ، والقيام بمراسيم الخدمات الأدبية ، والمقام بمراكز مرضية ، والوقوف عند كل ما يعجبه ويرضيه ، فإنى بحمد الله تعالى أعرف مداخل الأمور ومخارجها ، وعندى الاستعداد الكامل لصعود معارجها ، وأعلم طرق المجاز إلى حقائقها ، وسلوك دروبها وطرائقها ، فالأولى أن نقتصر عن المحاورة ، ونكتفى بهذه المساورة فى المشاورة ، ونتوكل على مقلب القلوب ، ونتوجه نحو هذا المطلوب ، بعزم شديد ، وحزم سديد ، فإن تيسر لى ملاقاة حضرته ، والتمثل فى مراكز خدمته ، وحصلت لى مشاهدته واتفقت مخاطبته ومعاهدته ، أنشأت خطبة تدفع الخطوب وتجمع القلوب ، وتؤلف بين المحب والمحبوب ، وأرجو أن تكون نافعة ، لمصالح الدين والدنيا جامعة ، فإن كلامى فى مقامى ، كما قيل فى المثل :

فَأَوْجَزَ لَكِنَّهُ لا يُخِلُّ وأَطْنَبَ لَكِنَّهُ لا يُمِلُّ

وآخر الأمر سلمت غرغرة زمام انقيادها إليه ، وعولت فى عمل المصالح عليه ، ثم قالت له : عش واسلم ، وتيقن واعلم إنك إذا قصدت خدمة الملوك ، وأردت فى طريق مصاحبتهم السلوك ، فإنك محتاج فى ذلك المنهاج إلى نور وسراج ، يهديك إلى صفات جميلة وتلبس بخصائل نبيلة ، تتحلى بجمالها وتتعلى بكمالها ، وتتجلى فى شمائل جلالها .

---

(1) أخلاقه .

الأولى : أن تقدم فى جميع مصادرك ومواردك مراد الملك على جميع مقاصدك .

الثانية : أن تتلقى أموره بالتعظيم وتقيم أوامره بالاحترام والتفخيم .

الثالثة : تحسن أقواله وتزين أفعاله بوجه لا يتطرق إليه تشويه ، ولا يحتاج فيه إلى تنبيه .

الرابعة : تجتهد فى صيانة عرضك عن الخنا[1] وإياك أن تقول فى حضرته أنا ، فتقع فى العنا .

الخامسة : أن تعد على الدوام ومرور الأيام خدماتك الوافرة ، وحقوقك المتكاثرة عن حقوق نعمه قاصرة .

السادسة : إذا وقعت منك زلة فلا تتعد بها جَمْعُ القِلَّة[2] ، بل اطلب لتلك الهفوة فى الحال محوة ، واقصد مراحمه وعفوه ، فإن الذنوب إذا تراكمت وتجمعت وتزاحمت أشبهت المزبلة المدمنة[3] ، وفاحت روائحها المنتنة ، والإنسان غير معصوم والآدمى بالخطا موسوم[4] .

السابعة : احفظ وجهك فى حضرته عن التقطيب ، وكلامك أن يفوح منه غير الطيب .

الثامنة : إياك ومصادقة أعدائه ومعاداة أوليائه .

التاسعة : كلما زادك رفعة وتقريبا مِلْ إلى التواضع وإعظامه تصويبا .

---

(١) الفحش فى الكلام .

(٢) أى الجمع القليل ، الشرزمة .

(٣) العفنة المنتنة .

(٤) موصوف ، ومطبوع عليه .

العاشرة : لا تدخر عنه نصيحة وانصحه فى الخلوة ؛ لئلا يؤدى إلى الفضيحة ، وإذا أقامك فى أمر ولو أنه المشى على الجمر ، لا تطلب منه أجرا ولا تبد لذلك ذكرا ، فإن الطمع يورث العقوق ، والمَنُّ يسود وجه الحقوق .

واعلم أن حضرة الملوك عظيمة ومجالسهم جسيمة ، تنزه عن الكذب والغيبة والنميمة ، والأقوال الوخيمة والأفعال الذميمة ، وإياك أن تتعدى القواعد الكسروية ، وتتخطى القوانين السلطانية ، فإن أعظمها كان أن يعرف كل انسان ، تقصير نفسه فى خدمة مخدومه ، ويعترف له من إحسانه مومه، ويقيم واجب همة ملكه ومقام مرسومه . قال النجدى : أخبرنى عدى[1] وحظى وسعدى ، وابنة السعدى ، ومزينة القواعد بشىء من تلك ء اعد .

[٨١] **قالت** : من القواعد الكسروية الدائرة بين البرية ، ما وضعها ص الملوك وحمل رعيته فيها على السلوك ، وكان مشهورا بالعدل لإحسان مذكورا بإقامة البرهان ، متصفا بالصفات الحميدة مكتنفا بالشمائل السعيدة ، من الدين والعفة وعدم الطيش والخفة ، بعقل راجح الكفة ، والعلم لوافر والحلم العاطر .

وذلك أنه فى بعض الأيام أمر أن يجتمع الخواص والعوام ، ما بين امير ووزير ، وكبير وصغير ، وغنى وفقير ، وجليل وحقير ، وعالم وجاهل، ومعضول وفاضل ، ومذكور وخامل ، وناظر وعامل ، وحال وعاطل ، وحاكم وقاض ، وساخط وراض وجندى وتبع ، وأخرق وصنع ، ووضيع وشريف ، ولطيف وكثيف ، وثقيل وخفيف ، وقريب وبعيد ، ومقبول وطريد،

---

(١) دعدى : اسم امرأة ، بمعنى يا صاحبتى .

وشقى وسعيد ، وسوقة وتاجر ، وسفيه وفاجر ، ودان وقاص ، وطائع وعاص ، وصالح وطالح ، وضاحك وكالح، ومصيب ومخطئ ، ومسرع ومبطئ ، وصياد وملاح ، وسياح وسباح ، وبلدى وفلاح ، ومسلك وسالك ، ومملوك ومالك ؛ بحيث لا يتخلف عن الحضور أحد ، ولا يجزى فى التقاعد والِدٌ عن ولد .

ثم مهد لهم فى روض أريض ومرج طويل عريض ، تصفق مياه أنهاره طربا ، وتتناغى بأطيب الالحان فصحاء أطياره الخطباء ، وتتراقص بزهر الوقت أغصان أشجاره، ويلتذ بفواكه الجنان جانى ثماره ، فهو كما قيل:

يَلْتَذُّ جَانيه بأَنْعَمَ مَقْطَفٍ ... منه وسَاكِنُهُ بأَكْرَمَ مَعْطَفِ

والورق بين محلق فى جوه ... طَرَباً ومُنْحِطٌّ عليه مُرَفْرِفُ[1]

وأمر بفرش ذلك المكان بالفرش الحسان ، من الديباج والحرير ، وأطلق مجامر الند[2] والعبير ، وبين لكل مقاما معلوما ومجلسا مقسوما ، وأجل كلا منهم محله وأسبغ عليهم ذيل إحسانه وظله ، ثم أمر بأنواع الأطعمة المفتخرة ، وأصناف الملاذ الطيبة العطرة ، فأُحضرت فى أوانى الفضة والنضار[3] ، ووضعت بين يدى أولئك الحضار ، بحيث عمت الجميع ووسعت الشريف والوضيع ، وجلس الملك فى مجلس السلطنة واكتنفه من العساكر الميسرة والميمنة ، وأخذ كل مكانه ورتب أصحابه وأعوانه ، ثم أقام عليهم أرباب الديوان، وأدخل جميعهم فى دفاتر الحسبان ، وأمر مناديا سيدا يرفع بصوته الندا ، فى ذلك الجمع بحيث شمله من الجميع ، النظر والسمع : يا أهل هذا المكان برز مرسوم السلطان ، أن كل من هو فى مرتبة من

---

(١) الورق ، المفرد ورقاء : وهى الحمامة البيضاء .

(٢) الطيب ، وهو من عود البخور .

(٣) الذهب .

مرضاة أو معتبة ، لا يلاحظ من فوقه ولو أنه من أمير أو سوقة ، بل يلاحظ حال من هو دونه ، فائزة كانت منزلته أو مغبونة ، فإن ذلك أجمع للقلوب وأدعى للشكر المطلوب ، وأجلب للرضا بحوادث القضا ، فإن من رأى نفسه فى مقام ، ونظر غيره فى أدنى من ذلك المقام استقام ، وكانت عنده منزلته عَلِيَّة ، وعدَّ لنفسه على غيره مزيه ، فتوطنت نفسه على الرضا ، واستقبلت بالشكر وارد القضا ، مثال ذلك الرئيس النازل فى الصدر ، إذا رأى من هو دونه فى القدر ، لم يشك فى أن محله محل البدر ، وباقى الرؤساء كالنجوم ، فلا يأخذه لذلك وجوم ، وقد قال الحى القيوم ، فى در كلامه المنظوم ﴿**وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ**﴾ [الصافات:١٦٤] .

وكذلك النائب بالنسبة إلى الحاجب ، والدوادار[١] بالنسبة إلى البزدار[٢]، والخزندار[٣] بالنسبة إلى جابى الدراهم والدينار ، والمهتار[٤] بالنظر إلى السائس والبرقدار[٥] ، وكذلك السائس بالنسبة إلى الحارس ، وكاتب السر المرتفع بالنسبة إلى المدبر ، والموقع والزمام بالنسبة إلى سائر الخدام ، وأيضا القاضى مع الفقيه ، والفقيه مع التاجر النبيه ، والتاجر مع السوقى السفيه ، والغنى والأمير بالنسبة إلى المأمور والفقير ، وعلى هذا القياس أوضاع جميع الناس ، من أرباب الصنائع وجلاب البضائع ، وأهل المدن والقرى ، وذوى البيع والشرا ، والوُهْدُ[٦] والذرا ، وأولى الوضاعة والشرف ، من أنواع المكتسبات والحرف ، إلى أن ينزلوا فى المراتب ،

---

(١) الداوادار : الكاتب ، وهى كلمة فارسية .

(٢) البزدار : كلمة تعنى حامل الصقر وهى مهنة كانت موجودة فى قصور الأكاسرة .

(٣) الخزندار : كلمة فارسية تعنى الذى يتولى حفظ الأموال .

(٤) المهتار : كلمة فارسية تعنى الوالى .

(٥) البرقدار : كلمة فارسية تعنى حامل الراية .

(٦) الأرض المنخفضة .

ويتدحرجوا من اليفاع[1] إلى الحضيض فى المناصب ، ويتعاونوا فى المناصب والمناقب ، ويصل قدرهم ونظرهم فى ذلك إلى كل ذى فعل سىء حالك ، كأرباب العظائم وأصحاب الذنوب والجرائم ، فينظر المعتوب حاله بالنسبة إلى المضروب ، والمشتوم حاله بالقياس إلى حال الملكوم ، والصحيح بالنسبة إلى حال الجريح ، ويلاحظ مضروب العصا حال المسلوخ بالمقارع ، ومضروب المقارع أحوال مقطوع الأكارع ، وكذلك المقطوع بالنسبة إلى مصلوب الجذوع ، والمصاب بالمال بالنسبة إلى مصاب البدن، والأعرج بالنسبة إلى المقعد الزمن ، وكذلك العوران بالنظر إلى مصاب العميان ، وليتأمل الناظر ما قاله فى ذلك الشاعر :

سَمِعْتُ أعْمَى مَرَّةً قَائلاً ... يا قَوْمُ ما أصْعَبَ فَقْدُ البَصَر
أجابه أعورٌ من خَلْفِه ... عندى من ذلك نِصْفُ الخَبَر

ولتكن هذه القواعد مستمرة العوائد بين الصادر والوارد ؛ ليعلم أن مصائب قوم عند قوم فوائد ، فاستمرت هذه القوانين مستعملة غير منسية ولا مهملة ، من زمان ذلك السلطان إلى هذا الزمان ، وانظر أيها الفضيل إلى معنى ما قيل فى هذا القبيل وهو :

على كلِّ حالٍ ينبغى الشكرُ للفتى ... فكم من شرور عن سرور تجلّت
وكم نِقْمَة عند القياس بغيرها ... تُرَى نِعْمَة فاشكر لَدَى كل نقمة

وإنما أوردت هذه الأمثال ؛ وأطلت النفس فى بيان هذه الأحوال ؛ لتأخذ منها حظك وتكررها فيما أودعته حفظك ، وتجرى بها ليلا ونهارا لفظك ، حتى تصلح لمنادمة الملك ، ولا يعلق بذيل مكانتك من الحساد مرتبك ، وترضى بأى مقام أقامك فيه ، وتعلم أنه أعلى مقام ترتضيه ، حيث هو لك يرتضيه ، وتجعل مورد لسانك ومقعد جنابك ، فى طلبك رضاه ما كنت أنشدتك إياه من قديم الزمان ، وأنا عليه الآن وهو :

---

(١) الشموخ والعلوُّ .

وأعلَى مقَاماتِى وأسنَى وظائفى وأحسنُ أسمائى الذى أنْتَ تَرْضَاه

فقال الذكر : ما أحسن عقد هذه الدرر ، لقد أفصحت إذ نصحت ، وزينت بما بينت ، فجزاك الله خيرا وكفاك ضيرا فحقيق على أن أقتدى بآثارك وأهتدى بأنوارك ، فما أرجح ميزانك وأغزر حسنك وإحسانك ، لقد جمعت بين فصاحة النقل ، ورجاحة العقل ، ومزجت روح الحصافة ببدن الظرافة ، وجلوت صورة النصيحة فى خلعة اللطافة .

ثم إنهما توكلا على العزيز الوهاب ، وقصدا حضرة ملك الطير العقاب، فواصلا السير بالسرى ، واستبدلا السهر بالكَرَى[1] ، ولم يزالا فى سير مجد وطلب مكد ، بين الإدلاج والدلجة مقارن حتى وصلا إلى جبل قارن، وكان عند العقاب أحد المقربين من الحجاب ، يؤيؤ[2] ؛ نقى الجؤجؤ[3]، تقى البؤبؤ[4] ، أحسن منظرا من اللؤلؤ ، صورته مسعودة ، وسيرته محمودة ، وهو بين أولئك الطير مشكور الأحوال مشهور الخير ، وفيه من المعرفة والدين، والعقل الرصين ، والرأى المتين ما يصلح أن يكون به مقتدى السلاطين ، وعنده من الوقوف على دقاق الأمور ما فاق به الجمهور ، وساد به على سائر الطيور .

وكان صيته قد اشتهر حتى ملأ البدو والحضر ، فترك النجدى بنت السعدى فى مكان ، وقصد اليؤيؤ ليعرض عليه ماله من شان ، فوصل إلى جنابه وأتى بيت مقصده من بابه ، حتى دخل عليه وقبل يديه ، وتمثل لديه فتوجه اليؤيؤ إليه ، وأشار بتقريبه منه ، وأزال دواعى الوحشة عنه ، وأقبل

---

(١) النوم .

(٢) اليؤيؤ : طير من الطيور الجوارح .

(٣) الصدر .

(٤) البؤبؤ : حدقة العين ، أى أنه خفيف النظر .

عليه بكليته وزاد فى إكرامه وتحيته ، وسأله عن محتده وجرثومه[1] ، وما سبب تجشمه فى قدومه ، ومن أين حل ركابه وما قصده وطلابه ، فأنشده بديها ولم يقل إيها[2] ، مفصحا معلنا مستعينا مضمنا :

لقد قَصَّ ريشى الدهرُ عن كل مطلب ... وألهمنى سَعْدِى بأنك رائِشُ

ففى سَمَرِى مدٌّ كهجرِكَ مُفْرِط ... وفى قِصَّتِى طولٌ كصَدِّكَ فَاحِشُ

ثم قال : اعلم أيها الرئيس المحتشم النفيس ، أن مولدى فى جبل من جبال أذربيجان ، فى مكان يضاهى الجنان ويباهى روضة رضوان ، أنزه من عنصر الشباب وأفكه من معاقرة الأتراب ، وأرفه من منادمة الأحباب على رقيق الشراب ، نشأت فيه مع قرينة جميلة أمينة، فقضيت فيه غض العمر وزجيت فيه بض الدهر ، قانعا بما تيسر من الرزق ، فارغا عما فى أيدى الخلق ، متمسكا بذيل العزلة أعد الانفراد نعمة جزلة مكررا درس ، ثلاثة تجم النفس : القرينة الصالحة ، والجار المؤنس ، والكفاف من القوت ، ومما كنت أنشدت وفى مبدأ أمرى أرشدت :

وحَسْبُ الفتى قوتٌ وخِلٌّ وزوجة ... ليرتاحَ فى الدنيا ويكتسبُ الأخرى

وكنت من الدهر على هذا اقتصرت ، ومن لذيذ العيش على القناعة اختصرت ، ولكن كان مأوانا ومصيفنا ومشتانا محل الحوادث وممر العوائث والعوابث ، ومعبر المصائب الصيد ومورد المواطئ عمرو وزيد ، فكنا كلما ولد لنا مولود وتجدد لنا بالبهجة والابتهاج عهود ، حصل للعين قرة وللروح مسرة ، نقول هذا يبقى ذكرنا بعدنا ، ويحيى آثارنا عند حلولنا لحدنا ، فلم يكن أسرع من هجوم خاطف أو هبوب ريح نكبة عاصف ، يخطفه من بيننا ويجذبه من قُبُلِنَا وعيننا[3] ، فإن سلم من تلك المكايد وتخلص من سهم

---

(١) أى سأله عن أصله وفصله .

(٢) إيها : اسم فعل يدل على الاستزادة .

(٣) أى من أمامنا ومن بين أيدينا .

المصائب والمصايد ، حطمته عساكر الملك المنصورة ، وملأت الأقطار الجنود الموفورة، فلا يخلو منها مكان قدم إلا وقد غص بمواطئ تلك الأمم ، فتذهب مناقرة العين ، وتدهك غَلَطاً تحت الرجلين ، وهذا هو البلاء الطام والمصاب العام ، ولابد منه فى كل عام ، فكأنه أيها النبيه النبيل فى شأننا قد قيل :

أيا ابنُ آدم لا يَغرُرْكَ عافيةٌ ... عليك شامِلَةٌ فالعمر ممدودُ
ما أنت إلا كزرع عِنْدَ خُضْرَته ... بكل شىء من الآفات مقصودُ
فإن سَلِمْتَ من الآفات أجمعُها ... فأنت عند كَمال الأمْر محصودُ

وضاق منا لهذا العطن فلم أر أوفق من مفارقة السكن ، والمهاجرة من الوطن ، فعرضت على القرينة هذه الحال ، وأشرت عليها بالارتحال ، وقلت لها : المرء من حيث يوجد لامن حيث يولد ، فأبت وكبت وشاقت فى ذلك ونبت ، فلا زلنا نتحاور ونتشاور ، ويرمى كل منا سهم رأيه إذ يساور ، حتى لانت أخلاقها الصعبة بعد أن ثلت ما فى الجعبة[1]، ثم أعطت القوس باريها وسلمت الدار بانيها ، وأدركت من ملامح مقاصدى معانيها وسمحت بالانتقال من تلك البلاد ، وسلمت إلى يد تدبيرى زمام الانقياد ، فرحلنا من شقة بعيدة وقاسينا شدة شديدة وقصدنا هذا الحرم ، إذ رأيناه مشتملا على اللطف والكرم، وقطعنا شباك مصايد وخلصنا من أشراك كل صائد ، وفطمنا أنفسنا عن حبات الطمع ، وتجرعنا من كاسات الجزع وأقداح الفزع جرعا بعد جرع ، فوصلنا بحمد الله إلى جنابك الأمين ، وبشرنا مبشر الإقبال أنك لكل خير ضمين ، فحمدنا عند صباح الفلاح السرى ، وأنشدنا لسان السعد مبشرا :

وَجدْتُ من الدنيا كَريماً نَؤُمُّهُ ... لدفع مُلِمٍّ أو لنَيْل جَزِيل

وإن لم يكن بيننا سابقة خدمة ؛ لكن تعارف أرواحنا قديمة ، مع أن كرم ذاتك الجميلة وما جُبِلَت عليه من صفات نبيلة ؛ يغنى قاصد صدقاتك عن

(١) الكنانة .

واسطة ووسيلة ، ووالله إنى لواثق بأن ظنى بوفاء مكارمك صادق ، فأسأل إحسانك يا ذا الخير إيصالى إلى خدمة ملك الطير ، وإن كانت رفعة مكانه فى العيوق[1] ، ودون الوصول إليه بيض الأنوق[2] ، لكن بواسطة الوسيلة يحصل هذا الشرف والفضيلة ، ولازالت الرؤساء والأكابر يأخذون بيد الضعفاء والأصاغر ، ولرأيك العلو والشرف والسمو والعف والحنو .

فاهتز اليؤيؤ لهذا الكلام وارتاح ، وظهر فى وجهه تباشير المسرة والارتياح ، وأنشد:

قَدِمْتَ بأنواع المَسَرَّةِ والهَنَا ... على خير مَنْزُول وأيْمَن طَائِر

فأهلا وسهلا ثم أهلا ومرحبا ... وبُشْرَى ويُسْرَى بالعُلَى والبَشَائِر

اعلم أن قدومك قدوم صدق ومرافقتك سبب الرفق ، ورؤيتك فتح باب الفتوح ، ورويتك غذاء القلب وراحة الروح ، أبشر بكل ما تؤمل وتختار فقد ذهب العثار ، وجاء الأمن واليسار ، أصبت مرامك وزينت مقامك ، وآنست منزلك وأوتيت مأملك ، فطيب خاطرك وبشر أهلك وعشائرك ، وأخبر غائبك وحاضرك ، ولقد قادك الرأى السديد والأمر الرشيد والفال السعيد ، حتى أويت إلى ركن شديد وملك كريم ، خلقه عظيم ، وفضله جسيم ، وجوده عميم، ونظيره عديم ، رؤوف برعيته رحيم ، لا يخيب آمله ولا يريب سائله ، ولا يقطع واصله ، ولا يمنع حاصله ، لقد أنبتت مساعيك أزهار الأمن والأمان ، وتفتحت لورودك فى رياض سعد الزمان ، نواظر نرجس النعمة وشقائق فضل النعمان .

---

(١) العيوق : نجم أحمر مضىء فى طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا ولا يتقدمها ، سمى بذلك لأنه يعوق الدبران عن لقاء الثريا .

(٢) الأنواق : العقاب ، وهو يضع بيض فى أعالى الجبال فيصعب الوصول إليه ، فضرب ذلك مثلاً .

فاعلم أن هذا الملك ذو جناب منيع وقدر رفيع ، وبيان معانيه بديع ، عزيز المنال ، جامع لصفتى الجمال والجلال ، وقد اختار العزلة فى رؤوس الجبال ، فلذلك طبعه لا يخلو من جساوة[1] ، وقلبه من قساوة ، وإن غذاءه من اللحوم ومن الحيوانات مشروبه ومطعومه ، مخاليبه كالأسَل[2] ، ويلجأ إلى الله تعالى إذا نسر منقاره ونسل[3] ، وحقيقة أمره إن كنت عنه تسل :

مُمَقِّرٌ مَرٌّ على أعدائه وعلى الأدْنَيْن حلو كالعسل[4]

فإذا التجأ إليه فقير ، أو أوى إليه ضعيف أو كسير ، أو قصده محتاج ، أو سلك إلى باب مرضاته منهاج ، فلا يمكن ألطف منه ولا أشفق ، ولا أقرب من عطفه مؤمليه ولا أرفق ، فهو كما قيل : بيض قطا يحضنه أجدل[5] ، وسبب ذلك أن ضميره المنير خال من المكر طاهر من التزوير ، لا يعرف ختلا ولا خديعة ولا خيانة ولا وضيعة ، ولا كذبا ولا قطيعة ، ولا فى خاطره فساد ولا عنده سوء اعتقاد ، ولا يعرف غير الحق ولا يقول إلا الصدق ، وذلك لبعده عن مخالطة الناس ، وعزلته عن كل ذى وسواس وخناس ، فلقد اتفق العالم أن صحبة بنى آدم سم قاتل ، وهم باتل[6] ، فإن دأبهم المكر والتلبيس والخداع والتدليس ، وحسبك قول شاعرهم فى كشف ضمائرهم وشرح حقيقة سرائرهم :

صُنْ مِنَ الناس جانباً كَنْ يظنوك راهباً
قَلِّب الناس كيف شِئْتَ تَجْدهُم عَقَارباً

---

(١) عداوة ، وبطش .
(٢) الأسل : الرماح وكل حديد رهيف من سيف وسكين .
(٣) أشهر منقاره للعض والقرم .
(٤) الأدنين : المفرد الدانى أى المقربين .
(٥) الصقر .
(٦) قاطع مهلك .

ولقد أرشد من أنشد :

بنو آدم إن رُمْتَ من خيرهم جَنْىً ... فأحلَى الذى تجنيه من وَصْلِهم صبرُ
مَكَارِمُهُم مكْر ورؤيتهم ريـــا ... ووِدهمو مؤذٍ وجَبْرَهُمُ كســـــرُ

فإن كان فيهم صالح ؛ أفسدوه وإلى سبل الضلال أرشدوه ، والكلام فى هذا المقام لا يبلغ التمام ، فيكتفى بالقليل عن الجليل ، وشمس النهار لا يحتاج فى وجودها إلى دليل ، فانهض الآن فقد آن التوجه إلى خدمة السلطان ، فما كل زمان يحصل هذا الإمكان فإن الاجتماع به كل وقت مشكل فتوكل على الله بأحس متوكل ، فإذا دخلت عليه وتمثلت بين يديه ، فاعرف كيف تقف وانظر يا ذا الكمال ماذا يناسب الحال ، ويقتضيه المقام من فعل وكلام ، فاسلك طريقته وراع مخارجه وحقيقته ، وادخل معه من ذلك الباب ومثلك لا يدل على صواب ، فما أسرع اللطف ، وأقرب العنف من حركات الملوك والكبراء ، وأبعد الرفق وأشرد الخلق من ملكات السلاطين والخلفاء ، وأقصى مدانيهم إذا غضبوا وأوحش مؤانسهم إذا صخبوا ، وأقرب مباعدهم إذا عطفوا، وأعجب مَنَادِمْهُم[1] إذا لطفوا ، ويكفيك يا ذا العقل المتين ما قيل فى شأن الملوك والسلاطين :

إنّ المُلوك بَلاءٌ أينما حَلّـــوا ... فلا يكُنْ لَك فى أكْنَافهم ظِـــلُّ
ماذا تُؤمّلُ من قوم إذَا غَضِبُوا ... جارُوا عَلَيْكَ وإن أرضيتهم مَلّوا
وإن مَدَحتَهُم ظَنُّوك تَخْدَعُهُم ... واستَثقَلُوك كما يُستَثقَلُ الكَـــلُّ
فاستَغْن بالله عن أبوابهم كَرَماً ... إنّ الوقوفَ على أبوابهـــم ذُلُّ

وقال سيد الأنام طرا[2] «لا تجاور ملكا أو بحرا». فان رضوا رفعوك فوق الأفلاك وإن غضبوا والعياذ بالله فهو الهلاك وناهيك من تقلبات الملوك

(١) تنافرهم .
(٢) جميعاً .

يا ذا الإرشاد فى السلوك ، أطفأ الله غضبهم عنك ، قضية صدرت من تيمور لنك ، فسأل فَحْلُ الحَجَل الوزير الأَجَلَّ بيان ذلك المثل ، الصادر من الأعرج الأشل :

[٨٢] **فقال الدستور** : مما حُكِيَ عن تيمور من وقائع الأمور ، وشدة عزمه وحزمه وثباته ، على ما يقصده وحزمه ، وحلول نقمته بمن يعارضه ويعاكسه فيما يرسم به ويناقضه ، أنه لما توجه بالجنود إلى بلاد الهنود وذلك فى سنة ثمانمائة ، وصل بجيوشه الطاغية إلى قلعة شاهقة ، أقراط الدرارى[١] بآذان مراميها عالقة ، والرجوم المارقة من النجوم الخارقة تتعلم الإصابة من رشاقة سهامها الراشقة ، كأن بُهرام[٢] فى مهواه أحد سوا طيرها، وكيْوان[٣] فى مسراه خادم نواطيرها[٤] ، والشمس فى استوائها غرة جبينها ، وقطرات السحاب فى الانسكاب تترشح من قعر معينها ، وشُقَّة الشفق الحمراء على آذان مراميها ، وأنوف أبدانها سرادق[٥] ، وكريات النجوم فى القبة الخضراء لعيون مكاحلها وأفواه مدافعها طابات[٦] وبنادق ، وكان الثريا فى انتصابها قنديل معلق على بابها ، لا يحوم طائر الوهم عليها ، فأنَّى يصل طائش السهم إليها ، ولا يتعلق خدم خدمتها خلخال خيال وافتكار ؛ فضلا عن أن يحلق على معصم عصمتها من عساكر الأساورة سوار .

وفيها من الهنود طائفة ثابتة الجنان غير خائفة ، جهزت أهلها وما

---

(١) الدرارى : السحاب الذى يدر الماء على الأرض ، والمعنى : أى أن قمتها أعلى من السحاب .

(٢) بهرام : إله يعبد لدى بعض طوائف الهنود وهم البراهمة .

(٣) أعظم شاعر فى الصين القديمة

(٤) نواطير : مفردها ، ناطور : حافظ الكرم أو الزرع .

(٥) الدخان المرتفع المحيط بالشىء وهى كلمة فارسية .

(٦) الأسلحة .

تخاف عليه إلى الأماكن المعجزة ، وثبتت هى فى القلعة حافظة لها متحررة مع أنها شرذمة قليلة وطائفة ذليلة ، لا خير عندهم ولا مير[1] ولا فائدة سوى الضرر والضير ، ولا للقتال عليها سبيل ، ولا حواليها مبيت ولا مقيل ، بل هى مُطِلّة على المقاتلة مستمكنة على المقاتلة ، فأَبَى تيمور أن يجاوزها دون أن يجاورها بالحِصَار ويناجزها ، واللبيب العاقل لا يترك وراءه لخصمه معاقل ، فجعلت المقاتلة تناوشها من بعيد ، ويصب كل من أهلها عليهم من أسباب المنايا ما يريد كما يريد ، وكان كل يوم يقتل من عسكره مالا يحصى، والقلعة تزداد بذلك إباء واستعصا ، وهو يأبى الرحيل عنها إلا أن يصل إلى غرضه منها ، ففى بعض أيام المحاصرة مُطِرُوا ، وبواسطة المطر انحصروا، وصار يحثهم على القتال ، ثم ركب لينظر ماذا يصنعون فى تلك الحال ، فلم يرتض أفعالهم لما عكست أوحالهم أحوالهم ، فدعا رؤوس الأمراء وزعماء العساكر والكبراء ، وأخذ يمزق أديم عصمتهم بشِفَار[2] شتمه، ويشقق ستر حرمتهم بمخاليب لعنه وذمه ، ونفخ الشيطان فى خيشومه وألهب فيه نار غضبه وشومه .

وقال : يالئام وأكلة الحرام ، تتقلبون فى نعمائى وتتوانونَ عن أعدائى ، جعل الله نعمتى عليكم وبالا ، وألبسكم بكفرانها خيبة ونكالا ، يا نابذى الذمم وكافِرِى النِّعَم وساقطى الهمم ومستوجبى النقم ، ألم تطؤا أعناق الملوك بأقدام إقدامى ، ألم تطيروا إلى الآفاق بأجنحة إحسانى وإكرامى ، ألم تفتحوا مغلقات الفتوح بحسام صولتى ، أما سَرَّحتُم فى منتزهات الأقاليم سوائم تحكمكم بترعية دولتى ، بى ملكتم مشارق الأرض ومغاربها ، وأذبتم جامدها وأجمدتم ذائبها :

أَلَمْ أَكُ نَاراً يَصْطَلِيهَا عَدُوُّكُم ... وحرزا لما أَلجئتم من ورائها
وبَاسِطُ خَيْرى فِيكُم بِيَمِينِهَا ... وقَابِضُ شَرِّ عَنْكُم بِشِمَالِهَا

---

(١) العون والمساعدة .
(٢) الشفار : حد السيف ، أى قطعه بشتمته .

ولا زال يهمهم ويغمغم ويهذرم[1] ويبرطم ، وهم مطرقون لا يحيرون جوابا ، ولا يملكون منه خطابا ، ثم ازداد حنقا وكاد أن يموت خنقا ، فاخترط السيف بيده اليسرى وهمز به على قِمَم[2] أولئك الأسرى ، وهم أن يجعل رقابهم قُرابه[3] ، ويسقى من دمائهم نمل فرنده وذبابه[4] ، وهم على تلك الحال فى الخزى و الإذلال باذلو أنفسهم ناكسو رؤسهم .

ثم تراجع وتماسك ، وملك نفسه قليلا أو تمالك ، فأغمد عن تشريقهم حسامه ، ولم يلق لأمره دبرة ولا قبلة أمامه ، فغلف غربه وشامه ، ثم نزل عن مركبه واستدعى على الشطرنج الكبير ليلعب به ، وكان عنده ممن فاق جنده شخص يدعى محمد قاوجين ، ذو مكان مكين ومقام أمين ، مقدم على كل الوزراء مبجل دون سائر الأمراء ، وافر الطول ، مقبول القول ، مسعود الرأى ، ميمون الفصل مرغوب الفضل ، محبوب الشكل ، فينشفع الوزراء إليه وتراموا فى حل هذا الإشكال عليه ، وقالوا : ساعدنا ولو بلفظة ، وراقبنا ولو بلحظة ، واعمل معنا بهذا المعنى وهو :

سَاعِدْ بجَاهِك من يَغْشَاكَ مفتقِراً فالجودُ بالجَاه فَوْقَ الجُودِ بالمال

فأجابهم وألتزم أن يرده عما تأزم به وأزم[5] ، وراقب مجال المقال وراعى فرص المجال .

وشرعت أفكار تيمور تغور فى أمر القلعة وتفور ، وجعل يستضوى أضواءهم ، ويستورى آراءهم ، ولا يسع كلا منهم إلا القبول لما يستصوبه

---

(١) يصخب .
(٢) همز به : أشار به . قمم الأسرى : رؤوسهم .
(٣) أى يذبحهم ويجعلهم قربان يقدمه إلى الله .
(٤) الفرند : السيف وذباب السيف أى سنّه . وهو أحد جزء فيه ، وغل السيف : أى الوشى والزينة على مقبضه .
(٥) أى أصابته شدة وضيق .

رأيه ويقول ، ففى بعض الأحايين اتفق أن قال محمد قاوجين ، وقد زل به القضاء وأحاطت به نوازل البلاء : أطال الله بقاء مولانا الأمير ، وفتح بمفاتيح آرائه ورواياته حصن كل أمر عسير ، هب أنا فتحنا هذه القلعة ، بعد أن أصيب منا جانب من أهل النجدة والمنعة ، هل يفى هذا بِذَا ، أم هل يوازن هذا النفع بهذا الأذى ، فما احتفل بخطابه ولا اشتغل بجوابه ، بل استدعى شخصا من البرقدارية ، قبيح المنظر إلا أنه فى هيئة ذرية ، يدعى هراملك إذا عَرَقَ سَهَك[1] ، ووجه فى السواد سدك[2] ، أوسخ من فى المطبخ واسنخ[3] من المسلخ ، لعاب الكلب طهور عند عرقه ، وعصارة القير[4] حليب بالنسبة إلى مرقه ، فعندما حضر لديه ووقع نظره عليه، أمر بثياب محمد قاوجين فنزعت ، وبخلقان[5] هراملك فخلعت ، ثم ألبس كلا ثياب صاحبه ، وشد وسطه بحياصته[6] ، ودعا دواو بن محمد ومباشريه ، وضابطى ناطقه وصامته وكاتبيه، ثم نظر ما له من ناطق وصامت ونام وجامد ، وملك وعقار ، وأهل وديار ، وحشم وخدم من عرب وعجم ، وأوقاف وأقطاع وبساتين وضياع ، وخول وأتباع وخيل وجمال ، وأحمال وأثقال ، حتى زوجاته وسراريه ، وعبيده وجواريه ؛ فأنعم بذلك كله على ذلك الوسخ، وأمسى نهار وجود محمد قاوجين الزنخ[7] ، وهو من ليل تلك النعمة منسلخ .

---

(١) أى له رائحة كريهة .

(٢) أى لزم وجهه السواد .

(٣) النتن .

(٤) القار والزفت .

(٥) الثياب البالية .

(٦) أى بسير يشد به وسطه ، وهو الحزام .

(٧) أى المتكبر الفاسد .

ثم قال تيمور وهو كالنمور يمور : اقسم بالله وآياته وذاته وصفاته ووحيه وكلماته وأرضه وسماواته ، وكل نبى ومعجزاته ، وولى وكراماته ، وبرأس نفسه وحياته ؛ لئن أَكَلَ محمد قاوجين أحدا ، أو شاربه ، أو ماشاه ، أو صاحبه ، أو كلمه ، أو صافاه ، أو أوى إليه ، أو آواه ، أو راجعنى فى أمره ، أو شفع عندى فيه أو فاه بعذره ، لأجعلنه مثله ولأصيرنه مثله ، ثم طرده وأخرجه ، وقد سلبه نعمته وأحرجه ، فسار مسلوب النعم قد حلت به فى لحظة نوائب النقم ، فسحبوه بالولَق[1] ، ورأى نعمته على أقل الخلق ، واتصل غيره بالحَلْق وقُطِع منه الحَلْق ، ففلقت حبة قلبه أشد فلق ، ولم يزل على ذلك فى عيش مر وعمر حالك ، وحاشا أن تشبه قضيته قصة كعب بن مالك[2] ، فكان يستحلى مرارة الموت ويستبطى إشارة الفوت ، وكل لحظة من هذا الحيف[3] ، أشد عليه من ألف ضربة بالسيف ؛ فلما هلك تيمور أحياه ورد عليه خليل سلطان[4] ما كان سلبه جده إياه .

وإنما أوردت هذه السيرة يا زكى السريرة ؛ لتقيس على هذا المثال نظيره ، وتعرف أخلاق الملوك ومعاملاتهم الغنى والصعلوك ، وأن نظرهم نُضَار[5] ، وأعراضهم بوار ودمار ، ومن أراد أن يطلع على سر القضاء والقدر فليراقب شفتى الملك إذا نهى وأمر وقال من أحسن المقال :

قُرْبُ الملوكِ يا أخا القَدَرِ السَّنِيّ حظٌّ جزيلٌ بين شدقى ضَيْغَم[6]

---

(١) بسرعة .
(٢) كعب بن مالك ؛ ابن أبى مالك ، عمرو بن القين بن كعب بن سلمة الأنصارى . شاعر رسول الله ﷺ وصاحبه . وكان من أهل الصنعة وذهب بصره فى خلافة معاوية . وكان مما شهد العقبة . مات سنة (٥١هـ) . سير أعلام النبلاء (٢١٣) .
(٣) الظلم .
(٤) حفيد تيمور لنك .
(٥) قوى ، حاد .
(٦) الضيغم : الأسد .

واعلم يا أبا الفضائل أن هذا الملك له شمائل وصفات وفضائل ، يستدل بظاهرها على باطنها ، ويتوصل بظهور باديها على حركات كامنها ، فإياك أن تغفل عن مراقبتها وتهمل حال عاقبتها ، بل اجعل شواهدها نصب عينك ، لتقرب من حياتك وتبعد عن حَيْنِك[1] .

منها : إذا رأيته رجع من الاصطياد ظافرا منه بالمراد ، وقد اقتنصه وحصله وملأ منه الحوصلة ، وسكنت منه بواعث الشره ، التى هى منفخ لواعج الطيش والسفه[2] .

ومنها : إذا رأيته جلس فى مجلس السرور ، وبسط لجبهة الكرم جناح النشاط والحبور ، وضم عن مطامح الحرص القوادم والخوافى ، وطلب من رؤساء المملكة الأنيس المصافى ، ومن ندماء الحضرة الجليس الصافى ، ومن مطربى الأطيار البلبل والهَزَار[3] ، ومن رقص بدفوف الأزهار ، وصفق من ذى عود وطار ، فاستمع لهذا وباسط ذاك ، وطفق جلساؤه ما بين منصت وحاك ، فإن هذه الأوقات لما فيها من علامات هى الانبساط ، وأيام الفرح والنشاط ، فاعمل فيها ما بدا لك وأطنب مقالك ، وكرر جوابك وسؤالك، فإنك فى كعبة الأمن فاستلمها وقد هبت رياحك فاغتنمها ، والعب بإبطيك وصفق بجناحيك ، واهدر فى نقنقتك[4] ، واسجع فى بقبقتك[5] ؛ فإن الوقت لك لا عليك ، والسعد الطالع ناظر إليك .

ومنها : إذا رأيته جالسا صامتا ، أو إلى الأرض باهتا ، أو محمرة عيونه أو مضطربا سكونه ، أو أفعاله على غير استواء أو أقواله دائرة مع

---

(١) هلاكك .
(٢) ردىء الخلق .
(٣) طائر وهو العندليب .
(٤) صوت كصوت الضفدع .
(٥) أى كثرة الكلام .

الهواء ، فإياك والدخول عليه والمثول بين يديه ، فإنه إذ ذاك يجعل ديار جسدك بلاقع[1] ، ولو أنك النسر الطائر ، فتصير فى مخاليبه أتعس واقع .

وعلى كل حال : فليكن عندك لكل مقام من هذه المقامات مقال ، وإن كان السكوت أصلح ، فاغلق باب الكلام قطعا ولا تفتح ، فكثيرا ما تخلص الساكت من البلاء وأفلح ، وناهيك النصيح بقوله الفصيح وهو :

وراقبْ مقامَ القول فى كُلِّ مَجْلِس ... خصوصا مقاماتِ الملوكِ الأكابر
فَكَمْ مِنْ بَليغ فَوْقَ ذِرْوَة مِنْبَر ... رَمَتْهُ أفاعى النطق تحت المقابر

قال المفلح النجدى للمرشدى المُجْدى : جزى الله مولانا عن صدقاته أوفر صلاته وواصله بموائد إكرامه فى عشيته وغداته ، فما أشمل إحسانه وحسناته ، وأسعد حركاته وسكناته ، وأوفر شفقته على قاصدى عتباته ، طالب أنت دليله كيف لا يفتح إلى الخير سبيله ، ويرجع إلى حصول المقام مبيته ومقيله . ثم إن اليؤيؤ الشفوق تركهم وطار إلى العيوق ثم رجع على الفور ووجهه يرف كالنور ، فدعا اليعقوب وتوجه وهو معه مصحوب ، وأخذا فى السير إلى خدمة ملك الطير وفَرَّعا فى جبل ، يسامى فى المثل قبة الفلك أو مركز الملك ، يستمد السحاب من ماء واديه ، وتسبح سماك السماء فى بحر ناديه ، يعرق جبين الوهم من صعود عقباته ، ويقصر ساعد الفكر فى سلم الهواء عن الترقى إلى أدنى درجاته ويستريح راقى الخيال فى عدة مواضع عند قصده فروع هضباته ، فهو كما قيل :

وطودٌ تلوحُ الشمسُ منْ تحت ذَيْلِه ... إذا هِيَ فى كَبَدِ السماء استقرَّتِ

فلا زالا يسيران وفى الجو يطيران اليؤيؤ أمام قائد الزمام ، والحجل وراءه ينشد هذا الكلام :

لكل إمامٌ أسوةٌ يَقْتَدى بِه ... وأنْتَ لأهل المكْرُمَات إمَامُ

---

(١) الأرض القفر : والمقصود الخراب .

فوصلا من تلك المدارج إلى أعلى المعارج ، وانتقلا فى تلك المسالك عن دركات المهالك ، وانتهيا إلى أوج رأيا ملكة النيران جارية فى حضيضه[1] ، ودرر الدرارى[2] راكدة فى قعر مغيضه[3] ، يشتمل على مروج ورياض ومراع وغياض ، وبحار وحياض ، تنادى خيراتها سكان الربع المسكون انصبابها عليهم ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات :٢٢] رياض تلونت ، ومرج بأزاهيرها تحسنت ، وأرض قال لها صانع القدرة إذا تمكنت تكونى كأخلاق الكرام فتكونت ، وأخذت زخرفها من رضوان خازن الجنان وازينت ، فولجا دار سلطنة العُقاب بعد مقاساة عِقَاب العِقَاب كما قيل :

مكاناً فيه سلطانُ الطيور ... تَصَدَّرَ بالسّرور على السَّرير
أطافَ به صُنُوف الطَّير طُرًّا ... عُكُوفا بالحضور وبالحُبُور
لكل فى مباشَرَةِ مقامٌ ... يقوم به جليلٌ أو حقيرُ

قد اكتنفته الميمنة والميسرة ، وأحدقت به المقدمة والمؤخرة ، كل واقف فى مقامه شاهينه[4] مع كَرَكِيه[5] ، وبازيه[6] مع حمامه ، فالأنيس صاحب الظرف والكيس حامل القبر كالأوزان[7] ، يترنم فى مقابلة الإيوان ، ويمدح ملك الأطيار والأمراء والحضار ، والكبراء والنظار ، وينشدهم جليل الأوصاف ورقيق الأشعار ، فمما أنشده الأوزان من مناقب السلطان ، ووجه الخطاب إلى العقاب قوله :

---

(١) قعره .
(٢) السحاب الذى يدر الماء على الأرض .
(٣) مجتمع الماء .
(٤) صقر .
(٥) طائر كبير الحجم .
(٦) صقر .
(٧) طائر يعيش بالقرب من الماء .

مَقَـامُك أعلَـى أنْ يَقُـومَ بوَصفِـــهِ بيـانٌ بليـغٌ أو لِســـانُ فُصَيِـــحٌ
أجَلَّتْكَ عَنْقَا مغـربٍ فاختفـــت فما تلـوحُ لِطَـرْفٍ فى البِلاَد طَمُـوحُ

والنسر الطائر المقدم على العساكر ، قد أظله بالجناح ، وليس عليه فـى طلبه سيادة الطير جناح ، رافع اللواء صـاف فـى جـو السماء ، رئيس الدير حامل القبة والطير ، كما قيل :

ونَسْـرُ تفرُّ الطيرُ من قرب ظِلِّه وفى ظِلِّه للسعْـدِ مَـأْوَى ومَنْزل

والسنقر[1] فـى ثوبـه الفهرى[2] وخلقـه ، وخلقـه النمـرى ، أميرسـلاح الجوارح ، ورأس عساكر السوانح والبوارح كما قيل :

هو السُّنقُـر العالِـــى بهمَّتِـــهِ التى تَعَلَّـتْ على أيْـدِى المُلُـوكِ بهَا يَدُه

والشاهين الـدوادار عليـه لمصـاح المملكـة المـدار ، قـد تصـدى لقضـاء الحوائج لكل داخل وخـارج ، ينظـر فـى الولايـة والعـزل ، ويتعـاطى الأمـور بالجد لا بالهزل ، فيقضى المآرب ، ويوصل المطالب إلى الطالب كما قيل :

طويـلُ العُنُق رَحْبُ الصَّدْر ضَخْمُ لـه فـى آل قسـطنطين ضَبْـطُ[3]
تَغَشَّـى من سَـوَادِ العَيْـن ثَوْبـاً عليـه مـن دَمِ الأَحشَـــاء نُقَـطُ

والكركى الراطن بالتركى ، يتجلى فى ثوبه المسكى[4] كـاتب الأسـرار وصاحب الأخبار، لسان المملكة ومحور الفلكة ، مستخدم السيف والقلم ، وفى الفضائل والفواضل نار على علم ، كما قيل :

وكَرَكِـى يحيـدُ الصقـرُ عنـــه نَهِيبـة بطشـــهِ وشـــديدِ بَأْسِـــه

---

(١) طائر من الجوارح أعظم من الصقر .
(٢) الكثيف الريش .
(٣) آل قسطنطين : الروم البيزنطيين .
(٤) أى ثوبه الأسود . نسبة إلى المسك الأسود .

والتَّمُّ[1] ، المشهور ناظر الجيش المنصور ، صدر الديوان وقاضى الجند والأعوان ، كما قيل :

وتَمُّ تُم دست الطيرُ منه ... كقاض زان أربابَ الكِتَابِ
عليه من المَهابة ثوبُ مجدٍ ... كوجْه الطائِعِينَ لدى الحسابِ

والطاوس كأزهى عروس ، فى أفخر ملبوس ، مقدم على الخواص كالناظر الخاص، ناشر مروحة الارتياح يتجلى بجمال هيئه الفائق على الوجوه الملاح ، كما قيل :

ثَوبُه قد حَارَ فيه ... كل صَبَّاغ عليم
ولسانُ الحُسْن نَادَى ... صِبْغَةُ اللهِ الحَكِيم
فَيَرُوقُ العينُ مِنْه ... فوقَ أوصافِ الكَلِيم

والبازِىُّ الأمير الكبير صحب الرأى والتدبير ، أمير الميمنة قد رتب صفه وزينه ، كما قيل :

وبازٌ أَشْهَبٌ عيناه حمرٌ ... يضيءُ وفى جناحيه النَّجَاحُ[2]

والصقر الشهم السابق فى الطيران الوهم ، أمير الميسرة قد فاق بشهامته عسكره ، كما قيل :

وصقرٌ إنْ يَلُح فى القفز ظَبْىٌ ... أُتيحَ له من الجوِّ انصبابا
أقام بمخلب عن شَهْم سهم ... ونَسْر عن قَوىّ النَّابِ نَابَا

والباشق الجاووش[3] ، ورأس نوبة العساكر والجيوش ، كما قيل :

نَظَرَ إلى البَاشِقُ فى صَيْدِه ... يَنْقَضُّ كالسهم من الرَّاشِق
يَقْفُو حَمَاماً مِثْل معشوقةٍ ... اتْبَعها الحب حَشَا العاشِق

---

(١) طائر مائى شبيه بالأوز أطول منه عنقاً .
(٢) الباز : الصقر .
(٣) طائر من أصغر الجوارح .

والببغاء تتجلى فى الحلة الخضراء ، وتنثر من الخاتم الياقوت[1] درر الثناء ، وتخبر بعجائب الهند ، وتسرد غرائب رغائب السند كما قيل :

تَسَمَّتْ دُرَّةً لَكِن كَسَاهَا ... حكيمُ الصُّنْعِ ثوبا من زَبَرْجَدِ[2]

وَمَنَّ لَهَا بمنقار عقيق ... وخَاطَ شِعَارَها مِنْ عَيْنِ عَسْجَدِ[3]

والهدهد لابس التاج ينهى إلى موقع الدُّرَّاج[4] ، أخبار المارة والأحوال السارة ، كما قيل :

وهدهد أَلْبَسَ ثوبُ البَهَا ... فعمَّ إذ خَصَّ بصدقِ النَّبَا

أَغْرَبَ إذ شَرَقَ فى حُسْنِهِ ... ففاقَ أَهْلَ التاج حتى سَبَا

والحمام مقدم البريدية ، يتردد فى مواقف العبودية ، والعصافير كالمماليك الأجلاب فى الكتاب يدرسون العلم والآداب ، والبلبل والهزار ، ومطوقات الأطيار وساجعات الأسحار ، مسبحات الواحد القهار ، يتناشدون الأشعار ، ويرددون نغمات الأوتار ، ومطربات رنات الأوطار ، وضروب ضروب الموسيقاه من حنك المنقار ، والشحرور والزرزور[5] ، وذوات الهديل من الطيور ، حتى جناح الزنبور[6] تغرد فتخجل العود والطنبور[7] ، وزواجل الطير تبشر بالفرح والخير ، وأنواع الجوارح فى الحافات ، والطير فى الجو صافات ، كل يفدى الملك ، ويقدم جسده وروحه ، ويسبح من آتاه الملك ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور:٤١] .

---

(١) الياقوت : من الأحجار الكريمة .

(٢) الزبرجد : حجر كريم يشبه الزمرد أشهره الأخضر وهى كلمة فارسية .

(٣) العسجد : الذهب والجوهر .

(٤) طائر يشبه بالحجل . قصير المنقار .

(٥) العصفور الصغير .

(٦) حشرة طائرة تشبه النحلة .

(٧) كلمة فارسية وهى آلة طرب لها أوتار من نحاس .

فتقدم اليؤيؤ إلى الحضرة والملك فى أبهى نضرة ، وقبل مواطئ سلطانه ، ووقف من مقام خدمته فى مكانه ، وقال : شخص عارف بطرائق السلوك ، يليق لخدمة الملوك ، واقف بالباب يروم تقبيل الأعتاب ، يطلب لذلك الدستور والإنعام بإذن الحضور ، وليشمله النظر الشريف ويحظى بحظ وريق وريف ، هل يرجع كالمصروف عن خدمته أو يدخل كالدولة والإقبال ، فعطف بالقبول وأذن له بالدخول ، وسمح بالمثول ، فتوجه اليؤيؤ على عجل إلى الحجل ، فدخل وهو من الحياء متأثر ، وفى ذيل الدهشة والهيبة متعثر ، وعليه غلالة سابورية[1] ، وخلعة نيسابورية[2] مشتملا بشملة كافورية[3] ؛ كأنه شيخ الصوفية ، فلما وقع نظره على العقاب قوى جأشه ورفع الحجاب ، وحل عقدة لسانه من لكنة الخطاب ، ثم قبل الأرض ووقف ، وأنشد بديها وما وقف :

ولو أنّ فَقْفُورا وكِسْرَى وتُبَّعا ... رَأَوْكَ لخرُّوا بين أيديكَ سُجَّداً[4]

وما أنْ وَفُوا حقًّا عليهم وإنما ... على قَدْر ما فى الوُسْع مَدَّ الفَتَى يَداً

فابتدر اليؤيؤ بلفظ يخجل اللؤلؤ للحجل ، يريد إزالة الدهشة والخجل ، وطيب المقام ببسط الكلام : أيها الغريب الأريب الأديب النجيب ، رأيناك روحا ملخصا وعقلا مشخصا ، صحبتك مرغوبة ومنادمتك مطلوبة ، لقد حللت محل الأمن والأمانى ، وعقدة السعد والتهانى ، فدع دهشتك وذر

---

(١) رداء جميل .

(٢) رداء فضفاض كان ينسج فى مدينة نيسابور وهى مدينة إيرانية كانت عاصمة خراسان فى القديم .

(٣) غطاء للرأس يفوح منه رائحة الكافور .

(٤) فقفور : أحد الملوك العظماء من تبع ، وهى : دولة قديمة نشأت فى اليمن بعد الدولة الحميرية حكمها عظماء الملوك . وكان يلقب كل واحد منهم تبع ، وآخرهم ذو نواس صاحب بخران .

وحشتك ، وأفصح بكلامك عن كمالك ، وعن مقامك بمقالك ، فعباراتك عقيلة العقل وواسطة عقود النقل ، فإن كان عندك نصيحة تصلح للملوك ، أو وصية ترشد أهل السلوك ، يبين العدل بنورها طرائقه ، ويزين العقل بمجازها حقائقه، وتستقيم بها الأمور ويستفيد منها الجمهور ، أو نوع رفع مظلمة أو حط مأثمة ، أو كشف بلوى ، أو بث شكوى ، أو حاجة فى نفسك وما قاسيته فى يومك وأمسك ، أو لطيفة تشرح بها الصدور وتبسط بإيرادها الحضور ، فهذا وقت تشنيف المسامع بجواهرها ، ونثر دررها على بادى الحاضرين وحاضرها ، فإن المحل قابل ، وعنك الإصغاء إلى أطواق لطائفك مائل ، ومجال الحلم لذاك واسع ، وسجال الكرم داسع[1] ، وفاعل الصنيعة صانع ، وكف اللطف معط لا مانع .

فقال الحجل ، بعد أن زال الخجل وحال الوجل وجال الزجل ، من غير ريث ولا عجل: الحمد لله الذى آسى جراحنا ، وأحيا بعد التلف أرواحنا ، قد كنا فى بيداء الحيرة والهلاك ، وظلماء الضر والخوف فى انهماك ، ومرت علينا سنون ونحن فى الخسار والغبون ، ونار الاشتياق تضطرم وبواعث تقبيل الاعتاب الشريفة السلطانية فى الفؤاد تزدحم ، إذ قد انتشر جناح عدلها ونجاح ظلها ، وسماح وابلها وطلها ، وكرر كل لسان محامد فضلها ، واشتهر لكل حيوان مآثر نبلها فهى أمان كل مخوف ، وملجأ كل مليوف ، لكن كانت العوادى تفرع تلك الدواعى ، وغواشى الحوادث تعترض دون المساعى ؛ تارة باكتناف المخاوف ، وطورا باحتفاف الخواطف ، وحينا بضعف المبانى ، وآونة بعدم المعاون والمعانى ، والآن يا ملك الزمان بحمد الله المنان ، أزحنا المهالك والمهاوى ، واسترحنا من ضرب المسالك والمساوى ، إذ قد طرنا بجناح النجاح ، من جنح الجناح ، وصرنا إلى محل السماح والرباح ، فزالت

---

(١) مملوء .

العلل وانسد الخلل ، وحللنا فى عقْوَة منيفة[1] وسَدَّة شريفة[2] ، فأمنا شرك المكايد وشرر المصايد ، وتوسدنا مهاد الدعه ، واستظللنا جناح الأمن والسعة، وأنه قد قيل : عدل السلطان خير من خصب الزمان ، وقيل : الملك العادل والإمام الفاضل ، كالأب الشفيق والوالد الرفيق ، يعامل بالسوية ويحفظ الرعية ، ويحرسها من برد الماء وحر النار ، كما يحرس الوالد الولد من هبوب الهواء وشم الغبار ، وقلت :

نَزَلْنَا فى ذُرَى ملكٍ كريم ... يَرَانا مثلَ أولادِ الكِرَام
أُضَلُّ نوائبَ الأيام عنَّا ... فَلَمْ تَرَنَا ولا فى الاحتِلاَم
ولاَ مَطَرُ السَّمَاء يصيبُ مِنَّا ... كَأنَّ مُقَامُنَا فَوقَ الغَمَام

فقال الملك : أهلا وسهلا ، وناقة ورحلا ، طب قلبا ونفسا ، واهناً معنى وحسا ، لقد حللت بساحة الاستراحة ، وباحة[3] للأمن مباحة ، وقاحة[4] ليس لصائد بها وقاحة ، ولا لجارحة جارح بها جراحة ، وقد حصلت من جواسر الكواسر ، ومناسر النواسر ، ونزلت بوادى الخير ، ونادى ملك الطير ، فأكرمت صدر منزلك ، ونلت غاية أملك ، فاذهب بسلام ، وات بمالك من خادم وغلام ، وأهل وثقل ، وفرس وجمل ، وأثاث وقماش ، ومعاش ورياش، وتخير مكانا تختار وجار أحسن الجوار ، فقال : أيها الملك السعيد أنا شخص فريد فقير غريب ، لا إبريق لى ولا حصير وقلت :

أنَا لَوْلاَ الحَيَا وخَوْف العَار ... لم أكن فى الأنَام إلاَّ عَارى
مَنْ رَآنى فَقَدْ رآنى وَبَيْتِى ... وبِئَارى ومَرْكِبِى وشَعَارى

---

(١) الساحة حول الدار . ومنيفة : أى منيعة حصينة .
(٢) أى باب الدار .
(٣) ساحة .
(٤) صلبة ومنيعة .

غير أن لى قرينة مثلى فقيرة مسكينة ، صابرة على السراء والضراء ، قضينا معا ماضى الصباح والمساء ، لم يترك عقيل الحوادث لنا دارا ، ولايدُ العوابث عقالا ولا عقارا ، ولا مخلب العوائث جارا ولا جوارا ، ولاناب الكوارث ولدا ولا قرارا ، والويل كل الويل لمن كان مستقره فى طوارق الليل، ومن حوادث الدهر على طريق السيل ، وقد طال الكلام فى كيت وكيت وقضايا ذيت وذيت ، إلى أن لم يبق فى البيت سوى البيت ، ولما بلغ سيلُ العَرِم الزبى ، وحزام الهم الطُّبَى[1] ، وما حال من يرى أفلاذ كبده تتقطع ويشاهد كل وقت قرة عينه بمخاليب الجوارح تتبضع ، ولا يد للمدافعة تمتد ، ولا نهضة للممانعة تشتد فينشد :

كَفَى حَزَنَا أَنِّى أَرَى مَنْ أُحِبُّهُ ... رَهِينُ الرَّدَى يَرْنُو إِلَىَّ بِطَرْفِهِ
أَوَدُّ بِمَا لِى لَوْ يُفَدَّى وَمُهْجَتِى ... وَلَكِنْ يَدُ التَّقْدِيرُ غَالَتْ بِحَتْفِهِ

ولما تكرر ضر أيوب[2] ، وتضاعف حزن يعقوب[3] ، تركنا تلك الديار بالاضطرار ، وعلى أبوابك الشريفة وقع الاختيار ، فرصدنا للتحويل أيمن الساعات ، وأخترنا للرحيل أحسن الأوقات ، ثم صممنا العزيمة وناداناهاتف السعد : أسرعا نديمى جذيمة فقطعنا المهامة والقفار ، وسرينا الليل والنهار ، فكم رغنا عن أبى الحصين ، ولقينا ما لاقى الحسين بكربلاء[4] من الكرب والبلاء ، وكم لجأنا من بنى زغار إلى كهف وأَجَم[5] وغار ،

---

(١) أى اشتد الأمر وتفاقم .

(٢) المقصود سيدنا أيوب عليه السلام .

(٣) المقصود سيدنا يعقوب عليه السلام .

(٤) الحسين بن على بن أبى طالب من عبد المطلب ، أبو عبد الله سبط رسول الله ﷺ وريحانته . الإمام الشريف الكامل . ومناقبه وفضائله رضى الله عنه كثيرة جداً . واستشهد يوم عاشوراء فى كربلاء من العراق سنة (٦١هـ) سير أعلام النبلاء (٢٨٢) الإصابة (١٧١٤) .

(٥) حصن .

واحترزنا من قنافذ وأفعوان ذى سم نافذ ، ونفرنا من حيات أشراك وحدنا عن أوهاك شباك[1] ، واخترنا الجوع وعدم الهجوع على الحَب المبذور لاصطياد الطيور ، كل ذلك فى المسالك والسعد قائدنا والفلاح رائدنا ، واليمن دليلنا وظلال أمنك ظليلنا ، وفى تهانى سعدك مبيتنا وكنف فضلك مقيلنا ، حتى حللنا بدار الأمان ، ونزلنا بحرم مولانا السلطان ، فنادانا فضل خالق الورى ﴿لاتَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:٤٦] ألقيا عصا التسيار وانزلا عند خير جار ، فتركت القرينة فى منزلة حصينة ، وكل بلادك أمينة ، وأممت مقامك الشريف ، وجنابك المنيف ، مقاما عظيما ، وجنابا كريما ، ومجلسا عاليا ، وبابا ساميا ، فتوخيت ثم نوديت :

هَـذَا هُـوَ المَلِـكُ الَّـذى مِـنْ بَابِـه ... يُعْطَـى المَخُـوفُ أَمَانَـهُ لِزَمَانِـهِ

عَـمَّ الوَرَى إِحْسَـانُهُ فَكَـأَنَّمَـا ... أَرْزَاقُهُـم كُتِبَـتْ عَلَـى إِحْسَانِـهِ

ثم نهض اليعقوب من مكانه وقبل الأرض بين يدى سلطانه ، وتوجه فائزاً بأمنيته ، حتى وصل إلى حليلته فأخبرها بما جرى بتخيير المشترى ، وكيف رأى اليؤيؤ والملك ، وصورة ما فعل به وسلك ، وكيف تلقى مقدمه ، وأكرمه الملك بما أكرمه ، وقرر كيف كان خطابه ، وعلى أى صورة حسناء رد جوابه ، فسر صدرها وانشرح وطارت بهذا الأمر من الفرح .

ثم توجها إلى حضرة السلطان وحصل لهما من الإنعام والإحسان ما نسيا به الأوطان ، وسلكا بنفس مطمئنة فى خدمة الملك مع الجماعة وأهل السنة ، وخوطب اليعقوب من الملك ﴿اسكُنْ أَنتَ وزَوْجُكَ الجَنَّةَ﴾ [البقرة :٣٥]

فلما استقرت بهما الدار ، وتبدل انكسارهما بالانجبار ، أفيض عليهما من الصدقات ، والإدرارات والنفقات ، ما لم يخطر ببالهما ، ولا دار على خيالهما ، وحصل ليما الأمن والأمان والسلامة والاطمئنان ، وانشرحت

---

(١) شراك الصيد .

خواطرهما وابتهجت بالسكون سرائرهما واستمر النجدى ملازم الخدمة ، وتوفرت عند الملك واتباعه له الحرمة ، وسمعت كلمته وتزايدت حشمته ولم يزل صبيح الطلعة ، نجيح السعى والنُّجْعَة[1] ، وضىء المنظر مقضى الوطر[2] ، يرتع على بساط النشاط ، ويطير فى رياض الأمن والانبساط ، مؤديا شرائط الخدمة على الوجه الأحسن ، قائما بمواجب العبودية مهما أمكن، إلى أن تميز على سائر الخدم وتقدم على السابقين فى الخدمة وثبات القدم ، ناشرا ألوية النصيحة ، ناثرا الأثنية الصريحة ، منادما باللطائف الصحيحة والنوادر المليحة ، بالعبارات الفصيحة والإشارات الرجيحة ، حافظا زمام الاحتشام مراعيا مقامات الكلام ، على مر الأيام وكر الشهور والأعوام .

ثم ختم الكلام فى هذا المقام بأعظم ختام ، وهوحمد الله الملك العلام وشكره المستدعى لمزيد الإنعام ، والصلاة والسلام على سيد الأنام ، وآله وأصحابه السادة الكرام ، عليه وعليهم أفضل التحية والسلام ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

---

(١) طلب الكلأ فى مواضعه .

(٢) الحاجة والبغية .